أسنان الرجل الميت

فـؤاد يازجـي

الأهالي

هنـاك في أمسـتـردام، بين القنـوات السـاحرة، والأبراج والحدائق والتماثيل، تمتحن الغربة خمسة مهـاجـرين عربـا، رمى بهم الفقـر في العـاصمة الهولندية، فوجدوا أنفسهم مشردين جائعين منهكين لاتشفق عليهم أناقة المدينة بحال من الأحوال.....

* أسنان الرجل الميت
* فؤاد يازجي
* الطبعة الأولى - ٣ / ١٩٩٥
* جميع الحقوق محفوظة
* تنفيذ: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع:
قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٢٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

تصميم الغلاف: زكريا الشريف

أسنان الرجل الميت/ فؤاد يازجي. - دمشق: الاهالي، ١٩٩٥ - ١٧٢
ص؛ ٢٠ سم
١ - ٨١٣,٠٣ ي ا ز أ ٢ - ٩٥٦١ . . / ٨١٣ ي ا ز أ ٣ - العنوان ٤ -
يازجي مكتبة الأسد
ع - ٣٩٢/ ٣/ ١٩٩٥

أسنان الرجل الميت

فؤاد يازجي

الفصل الأول

١

حين وصلت كان الصيف في بدايته، وكانت تعبر غيوم غريبة في السماء، ترذ مطراً بارداً على الحقول والهضاب الخضراء، فأسرعت إلى النزل. وقادني النادل إلى حجرتي، لم يكن بين يديَ أية حقيبة، لم أكن أملك أي شيء، وأزحت الستائر عن النافذة وجعلت أنظر إلى المطر، ثم فتحتها ذاهلاً، كانت الخضرة تلف التلال والقرية والكنيسة، وكانت الأشجار متجمعة عند الأفق، ومتفرقة يظهر بينها بيوت قرميدية وكان المطر يهطل ويغرق كل شيء.

وبعد الظهر انقطع المطر، وتفرقت الغيوم ثم تبددت تماماً، وأطلت شمس حامية حتى لتثير حكة في الأجساد، وكانت الريح قد أخذت تعبث بأوراق الشجرة التي تغطي جزءاً من نافذتي. وتمددت على السرير وتأملت ضياء الشمس فوق القرية المغسولة، ونظرت إلى زرقة السماء وأحسست بالخجل، إن مثل هذا اليوم يذكرني كيف كان يغمر الربيع المدينة التي درست فيها بعد أن أرهقها الثلج، وكم سرت على ضفة البحر وحيداً إلا من غيمة ممطرة فوق الروابي، كانت عيناي صافيتين والقلب مليئاً بالأسرار، أما اليوم وقد دهم ذلك الجمال الروح المثقلة، شعرت بالخجل، كرجل دميم

صادف امـرأة حسناء فجأة، كدت لاأطيق النظر إلى المزارع، شاعراً أن نفسي لاتستحق ذلك البهاء كله.

كنت خارجاً للتومن الوطن مثقل الروح، وكنت أعلم أنني لم آت إلى هولندا سائحاً، أو طالباً على الأقل، وإنما لأدفن نفسي في مطبخ وأعمل كعبد ليل نهار ونهار وليل، وتنهدت وشعرت بأسىً عميق، أثقل من العالم كله، لقد كانت والدتي مدرسة ووالدي محامياً، فلماذا أكون عاملاً؟ مامعنى أنني تعلمت؟ ولم أعثر على إجابة. وغلبني الحزن، وتقلبت على السرير، «الليلة الأخيرة الدافئة في حياتي» رددت في نفسي، ثم تذكرت فجأة أنني لم أجيء فقط من أجل العمل، بل لأنه لايزال في نفسي جوع كبير لاكتشاف العالم، فدمدمت أغنية قديمة وأنا أرنو إلى الغروب الحاني:

سيري ولا تعاتبي لاينفع العتاب
ولا تلومي الغصن والرياح والسحاب
فهي إذا عاتبتها لا تحسن الجواب.

لقد ابتعدت الشمس رويداً رويداً، ثم علقت خلف الأشجار، وراحت تغرق وراء الهضبة، كأن هناك من يدعوها، ولم يبق من الضوء سوى زغب رقيق ساحر، فغادرت الحجرة، وسرت حتى الكنيسة، ثم انعطفت إلى الطريق الترابي المودي إلى الحقول، سرت تحت شجرات الخوخ أردد: اليوم الأخير. اليوم الأخير.. وداعاً أيها الهناء، وداعاً أيها الماضي، كانت تنتابني رغبة شديدة في تذكر الماضي الساحر والبكاء عليه، ورغبة أخرى في النسيان والبدء من جديد.

واقتربت مني الأبقار وحاذت الأسيجة، وجعلت تحدق بي، وأنا أسير وحيداً. غداً يبدأ الفصل الثاني من حياتي، فصل من الشقاء والرعب، ترى أي كهف خانق ينتظرني، وهل سأجد ذلك العمل أم لا؟ تماماً كما يفكر أي

مهاجر رحت أحلم، هل أفلح في إنقاذ نفسي؟ هل أجمع بعض النقود ثم أعود؟ ماذا تخبيء لي الأبراج؟ هل سأدفن في مصانع للتعذيب حتى تذيب جسدي الواهن دموعي؟ ونظرت إلى كفي الهزيلتين وأعضائي النحيلة وهتفت لم أكن سوى طالب.. لم أكن سوى طالب.. ياإلهي.. أي جحيم ينتظرني؟.

كل ماأعلمه أنه محال علي العودة بدون نقود فكرت أخيراً، ملتفتاً إلى الوراء، ولمحت النزل الغاطس بين الأشجار، وغرفتي المضاءة، وعدت أدراجي. وعندما وصلت وجدت الحجرة مليئة بالفراش، وكان الليل قد استولى على الطرق والتلال والأشجار، وبدت نوافذ مضاءة بعيدة هنا وهناك، وجلست وحيداً، وتناهت إلي جلبة من الغرف المجاورة وأصوات عربية، ولكنني استسلمت للرقاد، وأطفئت النور، فأعتمت الشجرة التي تعانق النافذة. وتراءت لي جدتي وهي تسرد كيف أرسلت زوجها ليشتري دجاجة من المخزن المجاور، ولكنه وجد رفاقاً في الحي مهاجرين إلى البرازيل، فرحل معهم، رأوه عائداً بعد أربعين عاماً، مربالحانوت واشترى دجاجة ثم عاد إلى المنزل.

يا للحكاية الغريبة!.. ترى هل ترمز إلى أن الحياة بعيداً عن الوطن ليست سوى باطل؟ يقول غوركي إذا تغربت ستندم وإذا لم تغادر وطنك ستدفع الثمن، ياإلهي.. كل شيء باطل.

٢

استيقظت باكراً جداً، كان وميض السحب يلمع كالشرر تحت طيات متراكمة من غيوم الفجر المشتتة. وتسربت أول خيوط الشمس، وكنت أحدث نفسي: بأي نصل ستقوم الأيام المقبلة بتمزيق حياتي الروحية؟ بأية طريقة ستضيع الدعة والأفكار والحب والفن؟ وسمعت طرقاً غير مقصود على الباب، وعندما فتحته رأيت امرأة سوداء العينين تنظف الممر، فأكملت طريقي إلى موقف الترام، كانت امستردام تبعد أربعة كليومترات عن تلك القرية. وتبسمت شفتاي لمشهد عجل مربوط بمقبض سيارة، وما إن مضت الحافلة بي حتى انداحت أمام ناظري حقول كثيفة مزروعة بشتى ضروب الزهر، تموج صفراء وحمراء وزرقاء فوق سهب يبدو كسجادة. ثم سار الترام على ساحل ساقية رمادية بلا موج، كانت طيور بيضاء تسبح قرب البط العائم، كانت الساقية ساحرة رائقة يدور قربها طواحين ضخمة آجرية. ورفرفت أجنحة بيضاء لطيور الحب فوق عشب مبلل شديد الخضرة، ودخل الترام المدينة عبر فوق خمس قنوات قبل أن يصل إلى محطة القطار.

سرت طوال اليوم بحثاً عن عمل في المطاعم والحانات، وتبدت لي أمستردام غارقة بالأنهار والبحيرات والسواقي، يكاد لا يخلو شارع من قناة تتوسطه يحف على طرفيها الأشجار. لقد سطعت الشمس وكان مشهدها

زاهياً وهي تسقط على القنوات، وكانت أوراق الشجر تلتمع مكللة بالضياء، وكان الناس يمرون بي مرحين مرحين، لم يكن في ذلك الصيف مشهداً أكثر بهجة من أن تنظر إلى المياه عبر الأشجار المدلاة.

كان هناك عدد كبير من السياح كانت المدينة كلها تنطق بالانكليزية. وجلست قرب شجرة محنية تكاد أوراقها تلامس صفحة المياه التي تعكس هيكل كنيسة مجاورة وأبراجها، ودخل مركب سياحي يجوب المدينة عبر القنوات جعل المياه تتلاطم وراءه وتصدم الزوارق المربوطة على الأطراف، وابتعد رف من الحمام مولياً، وقلت في نفسي على هذه الأرض أناس سعداء حقاً، كانت فتاة شقراء بعمر الزهور، جميلة كزنابق الوديان، تعبر القناة على هذه السفينة بجانبها شاب في السادسة عشرة يُقحِم يده في صدرها ويقبلها، كانت النوارس تدور حولهما وتنشد أغنية الحب، والموج يعزف سيمفونية النهر الرتيبة.

ووجدت نفسي أمام متحف فان كوخ، وعز علي عدم الدخول، فأعطيت لنفسي ربع ساعة. مررت بلوحاته «ساحة السجن، ذكريات الشمال، حقل حنطة وغربان. . . . .» مرور الكرام وغادرت وأنا أتذكر كيف أطلق رصاصة على معدته تاركاً قصاصة لأخيه كتب عليها «لن ينتهي الشقاء» ورددت في نفسي أن الحضارة لم تسطع هذا الصباح تذكرت عصور الحروب والضياع، فقراء بلزاك وهيجو وديكنز، الكفاح المرير من أجل العلم والفن والعدالة، أجيال العذاب والصمود والبؤس، ثم أشرقت الشمس على أوروبا وأغفت تحت سماء صافية على ضفاف الأنهار والبحيرات.

وتراءى لي مطعم يوناني إسمه «زوربا» فقصدته وأنا أتذكر زوربا الذي يحرق القرى ويقتل ويسرق ويرقص ويخمر ويغني ويضاجع النساء، ولأنه يملك قلب انسان حقيقي تتجدد رؤيته للعالم، وينظر إليه كأنما يراه

للمرة الأولى، ينبعث من جديد، فيقبل مرة أخرى بشراهة على الطعام والشراب والنساء، وتتغلغل عناصر الكون حتى أعمق حواسه. زوربا قاطع الطرق الممتلىء جسده بالقروح والندوب العميقة وآثار الرصاص والسيوف يوزع نقوده على أبناء عدوه المذبوح، ويرتمي عند قدمي التركي لمجرد هوسه في تعلم العزف على السناتوري، ويقطع أصبعه لمجرد حنينه إلى تعلم صناعة الفخار.

فأرسلني النادل إلى فرع آخر له، فسرت وأنا أتذكر صورة فوتوغرافية لزوربا، في مجلد يوناني من تأليف زوجة الكاتب كازنتزاكيس. وكيف قلت يومها: مع ذلك إن زوربا ليس شخصية حقيقية، إن الإنسان الذي يعوزه العلم لايمكن أن تدركه الشيخوخة وهو لايزال يسمو ويسمو ويقوم بالأعمال الصالحة، على العكس إنه سيغوص في الوحل ثم بعد ذلك يغرق فيه. إن زوربا إن هي إلا الشخصية التي يتمناها الكاتب مزيجاً من روحه التي تسامت بالمعرفة وتلك الروح الخام التي ظلت غير مصقولة بمبرد من الوصايا، غير مكبلة بأسيجة المجتمع والناس العاديين. إن بطل القصة الذي يستهوي النفس هو كازانتزاكيس نفسه وليس زوربا.

كنت لاأزال متفائلاً بذلك الصباح، وكانت الشمس الحبيبة والمدينة الملتمعة والرؤى الجديدة تملأ نفسي بالأماني والآمال، ولكن ما إن حل الظهر حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسي، كان المطعم اليوناني الثاني قد رفضني لأنني لاأتكلم الهولندية، وكان العرب الذين صادفتهم قد أفهموني أن العمل دون أوراق شبه مفقود، فكنت ما إن أسأل أحدهم حتى يجيبني: لو كنت أعلم أين يوجد عمل لعملت أنا. ومع ذلك لم أفقد سرعة خطاي، وكنت أستقل الترامات حتى آخر محطاتها ثم أعود سيراً على الأقدام، ماراً بالتماثيل والكنائس والأبراج ملقياً نظرة واحدة لاغير، عابراً القنوات

والحدائق والجسور بلمح البصر، وكان بعض أصحاب المطاعم يعدونني «عد بعد شهر» وآخرون ساخرين «عد في الشتاء»، كانت مطاعم المصريين كثيرة لاتحصى وكان العاملون فيها معظمهم بدون أوراق وكانت المدينة مزدحمة مترفة والزبائن كثيرون، ولكن أحداً منهم لم يرغب بعامل جديد. وكان نفاذ النقود يقض مضجعي كل دقيقة وكل خطوة. وكان مهرجون كثيرون يقفون في الشوارع ويعرضون ألعاباً سحرية، وكانت المخازن ضخمة واسعة بطوابق عدة يصل بينها أدراج كهربائية، والبضائع بمئات الأنواع، وكانت المقاهي مفروشة على الأرصفة والناس يجلسون يدخنون، كانت المدينة مرحة مليئة بالبهجة ولكنني لم أسمح لمشاهدها أن تثير بي كثيراً من الانفعال والأشجان، كان علي أن أظل راكضاً مساقاً من حانة إلى فندق إلى مطعم إلى مزرعة، كان علي أن أسأل كل عربي وكل من تتاح لي فرصة مكالمته، حتى انتهيت إلى مسجد المدينة فانتظرت على بابه حتى ختمت صلاة الظهر، فخرج منه أتراك ومغاربة ومصريون، بعضهم ملتح وآخرون بجلباب أبيض أو رمادي، ولكن أياً منهم لم يستطع أن يشير لي أين أجد عملاً، وكان الأكثرية يردون علي بجفاء وفكر مشغول بقضايا خاصة، ونصحني أحدهم أن أسأل إمام المسجد، وطال انتظاري له ولم يخرج، فاستندت إلى سيارة ليموزين فاخرة، دون أن أدرك أن أحداً لايفعل مثل هذا في أوروبا، وحينما خرج بجلبابه الأنيق وذقنه المليئة بالشيب سميناً وحيداً، أغلق البوابة بالمفتاح ثم وضعه في جيبه، فانتظرته حتى اقترب مني، ومددت له يدي مصافحاً، فحياني بحرارة وهو ينظر إلى سيارة الليموزين وأخذ يسألني عن صحتي وصحة العائلة بتهذيب وخفة من يعامل رجلاً ثرياً، حتى إذا وصل إلى السؤال عن اسمي وأين أسكن شعرت بالخيبة والخجل من أن أقول له أنني معدم وأبحث عن أي عمل بأي أجر، بعد أن

أشرق وجهه بهذه الصورة فودعته وانصرفت.

وعدت إلى مركز المدينة فوجدت نفسي أمام «متحف الجنس»، وعلا وجهي الدهشة، وعندما دخلت وجدت كل شيء مبتذلاً، كان قرب المدخل تلفاز صغير يعرض أول فيلم جنسي صامت، ورأيت صورة كبيرة لامرأة تضاجع حصاناً وأخرى ملتفة حول بطن ثور ولفتت انتباهي صورة رجل شرقي يضاجع امرأة سمينة جداً. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الصور التي يمكن أن تشاهد في أية مجلة، يمكن أن يرى صور فوتوغرافية لمنحوتات جنسية سومرية وبابلية، وكانت هناك لوحات من القرن الماضي تحمل بعض القيمة الفنية. مررت بكل ذلك سريعاً جداً فلم أشعر إلا وأنا في الشارع ثانية. وكان بجانب المتحف مطعم للبيتزا، وكان وراء الواجهة الأمامية مصري يلقي أرغفة العجين في الهواء ثم يتلقاها بخفة جاعلاً كثيراً من السائحين يتوقفون لمشاهدته، ثم يملوءها باللحم والبطاطا والبصل والطماطم ويرميها في الفرن، ويبدأ من جديد بالعجن وإلقاء الأرغفة في الهواء، فدخلت وسألته عن عمل فقال «إنني مشغول الآن، انتظرني في السابعة على جسر تلك القناة. . وستتحدث» وأشار بيده نحوها وشكرته وانصرفت، وابتعت قليلاً من البطاطا المقلية وتابعت تجوالي.

كانت القناة مزدحمة بالقوارب المتوقفة، وكانت ظلال الأغصان المتدلية فوقها منعكسة على صفحتها خضراء مرتجفة، وفي وسط المجرى يُلمح زرقة السماء وقد تسللت من بين الأشجار، كان المشهد ساحراً في ذلك الأصيل تكتنفه ريح عليلة تغمر المرء بالغبطة إذا ماتوقف هنيهة فوق الجسر، ورنا إلى ألوان السيارات على جانبي القناة، تعكس ضوء الشمس المتطاير على القوارب والمياه والأبنية.

وشيئاً فشيئاً بدأ الضياء يخفت والأشجار تلقي ظلال مغرية فوق

الساقية. غدا رونق المشهد حزيناً ولكنه يعبق بالغموض، وتردد جرس الكنيسة فأضفى سحراً خاصاً على هدوء الشارع الكئيب، ولم يحضر المصري، وغدت نفسي حزينة كالنهار الآفل، جلست وحيداً أنظر إلى امستردام التي تجري، بدت مدينة العذاب بشكل مغاير لما كانت عليه في الصباح، وكانت النار تشتعل في حذائي، فخلعت جواربي ووضعتهم في جيبي، وتابعت البحث في الشوارع اللامبالية.

وعند الغروب ألقتني قدماي على مقعد في ساحة الدام «مركز المدينة»، إنني لاأذكر أنني سرت يوماً كما حدث ذلك النهار. وجاء أحدهم وباعني قبضة من الحبوب واجتمعت حولي الطيور، ووقفت على كتفي ويديَ وكان هناك آخرون يطعمون الطيور الرمادية ويضحكون ويلتقطون الصور. وكان هناك عزف على الناي يأتي من مكان ما في الساحة، وكان اللحن يصلني ولاأدري من أين. وكان أمامي منضدة رخامية سوداء، داخلها رقعة شطرنج من رخام أبيض وأسود، وعزفت ساعة القصر الملكي مقطوعة الصيف ثم دقت تسع مرات معلنة الساعة التاسعة. وتكاثر ملتقطي الصور تكاثر الحمام. وبقيت وحدي، وظهر بعد قليل مهرجاً بملابس فضية أخذ يمثل دور الرجل الحديدي، وتجمع حوله السائحون وأخذوا يلقون النقود في قبعته. وجلس بجانبي شاب هولندي صبغ شعره أزرقاً، بجانبه فتاة آية في الرقة تلبس أسمال شحادة وجعلا يتعانقان. وركضت طفلة صغيرة فانطلق الحمام هارباً محلقاً حولها، فغطت وجهها بكفيها. وظل صوت الناي يسمع من مكان ما رخيماً خافتاً وظللت لا أدري مصدره. وبقيت مسترخياً، وظهر بعد قليل شاب طويل الشعر، ذو وجه ملائكي، يعلق صليباً في أذنه اليسرى، وأخذ يعزف على الكمان لحناً رقيقاً خافتاً بتعالي غريب حقود كأنه مجروح من الناس الذين التفوا حوله وأخذت إحداهن ببنطالها، الممزق

بصورة مقصودة، تجمع له النقود، ومرت بي فأخرجت لها جيبي الفارغ فضحكت. وتجولت في الساحة على بقايا الضوء الآخذ بالادبار، كان أحدهم لايزال يرسم على الأرض لوحة ملونة لوجه مدام توساد، وكان الناس يتوقفون هنيهة يرنون إليه ويلقون النقود في علبة صغيرة بجانبه. كان متحف توساد قد غدا وراءه وإلى اليسار القصر الملكي والكنيسة الجديدة، ومن بعيد يلمح بيت السيمفونيات ومحطة القطار، وكان يحاول إبراز كل ذلك وراء الوجه الرائع المليء بالطمأنينة. وندت طلقة أطارت الحمام فتوقف فوق اللوحة. وحين عدت وجدت أحدهم قد اعتلى منضدة الشطرنج وراح وهو يشير بيديه يعظ بالانكليزية: لقد قرأت كتب كثيرة، لقد قرأت الهندوسية والقرآن والبوذية، ولكن الكتاب الوحيد الذي قرأته وغيرني هو كتاب يسوع المسيح. وتحلق حوله المتفرجون بينما ظل صوت الناي يأتي من مكان ما غريب، وعزفت ساعة القصر من جديد، ثم دقت عشر مرات معلنة الساعة العاشرة، وكان المبشر يقول ان آلام المسيح على جبل الزيتون لم تكن أقل مما هي على الجلجلة حين قصدت موقف الترام، وجلست قرب النافذة، ونظرت إلى الليل، وعبر الترام من جديد فوق القنوات الخمس، إن أكثر ماأدهشني في امستردام، تلك البيوت التي تحف مياه القنوات أسفلها، وفي ذلك اليوم حين عبرت الجسور وأضواء المصابيح تتسلل من بين أغصان الأشجار إلى صفحة المياه الكالحة، شعرتُ برهبة لم تلبث أن انقلبت إلى حزن، تحول بدوره إلى أمل، بينما ظلت المياه لاهية تصادم حفاف المنازل: ياجدي، كيف رحلت بتلك البساطة دون أن تودع زوجتك؟ هل قالوا لك أن الذهب في البرازيل لا يحتاج سوى إلى مكنسة؟ كيف خلفت جدتي مغمياً عليها غير مصدقة؟ ولم يبق أحد في المدينة لم يعلم بقصتك.

٣

أيقظتني أوراق الشجرة وهي تحف بالنافذة، كانت الريح تموج بالأغصان، وكانت السماء زرقاء تجري، والسحب بهيجة تعانق حفاف الهضبة، وشعرت بالسعادة، وعز علي مفارقة السرير، لقد خيل إلي أن الكون عظيم رائع لو كان للمرء قلب قنوع، وارتديت ملابسي وأسرعت بالخروج، يجب أن أجد عملاً قبل أن تنفذ النقود القليلة المتبقية في حوزتي. هبطت السلم سريعاً، وفجأة تناهت إلي أصوات عربية من إحدى الغرف، واقتربت، كان الباب شبه مفتوح، واستطعت تمييز شابين يلعبان الشطرنج، وقال الأول للثاني:

- أكرر تنبيهك دون أن أقصد إخافتك أن النشل كالشطرنج لايحتمل أن تخطىء به مرة واحدة، ولكن قد يحدث أن تخطىء أنت ثم يخطىء غريمك في الرد عليك، كما حدث البارحة عندما لم تلحظ وجود المرآة ومع ذلك فإن البائع لم ينظر بها أيضاً.

كان صارم الوجه، رهيباً، عيناه مرنتان حادتان كصقر ضار. وتبدى الآخر لين العريكة، وديع المحيا، وكانا يتكلمان بلهجة جزائرية وأجابه:

- المهم أنني نجوت.
- ليس المهم أنك نجوت، ليس النجاح مجرد الافلات، ليست تلك المرة

الأخيرة، كن كالتاجر الذي لايهتم بالمال بقدر مايهتم بفن التجارة، اجعل هدفك تحقيق الكمال في الشيء الذي تقوم به.

فقال منتشياً:

- لقد أفلتُّ بأعجوبة.

ونظر إليه الآخر بإزدراء:

- لاتقل أنا الخفيف، أنا السريع، أنا أنا، بل تمهل وتأمل وتمتع بالذي تقوم به.
- لم يقبض علي طيلة وجودي معك.
- ان تكرار النجاح يجعلك تظن أن الملائكة تحرسك... احذر، انتبه لكل خطوة. سنجرب اليوم بمخازن العطور.

وشحب لون الآخر، فربت على كتفه ضاحكاً:

- حسناً المثل يقول لاتخض النهر قبل أن تصل إليه، ان العطر يباع سريعاً. يجب ألا تتذكر السرقة إلا عندما تصل إلى مكانها، أما باقي الأوقات فاقضها لاهياً. يمكن تعريف لحظة السرقة بأنها الثواني التي تمسك فيها الشيء، ثم تضعه في جيبك، وهكذا من الحماقة أن ترتبك أو تضطرب منذ الآن كأنك سرقت ثم قبضوا عليك وانتهى الأمر.
- ولكن هذه المحلات أكثر زبائنها من النساء، سوف يكون وجودنا مريباً.
- سوف نستغل انشغال البائع مع الزبائن، فإذا كان المخزن فارغاً ننتظر على الرصيف فما ان نجد شخصاً داخلاً حتى نتبعه حيث سيبدأ البائع بالانشغال به أولاً.

ثم تلفت بضيق يمنة ويسرة وقال:

- يجب أن تتحرر من أي ظن بأن ثمة أشباح في المخزن تراقبك.
- لقد فشلنا في المرة السابقة.. ان عيون البائعات لم تفارقنا.

- ليس معنى ذلك أننا خائبون، إن السرقة كالشطرنج تزداد مهارتك به بمرور الأيام وبالتمرين، وكما قد تذكر أن لاعباً هزمك في يوم ما، ولكنك اليوم بإمكانك سحقه هكذا تتذكر مخزن قديم خشيت أن تسرق منه، ثم تقول ياليتني كنت الآن هناك، ان محلات العطور كنز.. كنز هل تسمع؟.
- نعم لأنها تباع للعاهرات ثم بعد ذلك تنفق النقود عليهن.
- أنت انفق النقود كما تشاء.
- حسناً.. سندخل مخزن آخر غير الذي قصدناه في المرة السابقة.
- على العكس، لاتسرق من أي محل لم تدخله من قبل، من الضروري أن تعرف هدفك قبلاً فتدخل كالريح تأخذه وتخرج، كأن على رأسك طاقية الإخفاء.
- منذ شهرين دخلنا هذا المخزن نفسه أيضاً، هل تذكر؟ كان الوقت مساء وكنا عائدين...
- نعم لقد تجولنا طويلاً في المدينة ولم نفلح.. ولكن كان علينا أن نحذر من المضي بخطة فاشلة نتيجة لليأس، إذ بما أن السرقة مثل الشطرنج، يجب ألا تدخل المخزن وأنت مجهد متعب من السير طيلة النهار، لأنك بحاجة إلى حد معين من التركيز يسلبك إياه الارهاق الشديد.

واتجه نحو الخزانة قائلاً:

- هيا البس طقمك الجديد. لكي تكون سارقاً ناجحاً يجب أن تكون ملابسك أنيقة، وذقنك حليقة، وابتسامتك على ثغرك، ولكن ليس إلى حد تثير فضول وإعجاب من حولك.
- ولكنه مسروق!
- صه.

ولم أدر إلا وقد فتح الباب فجأة وأمامي انتصب الجزائري الضاري

بوجهه الحجري وعينيه الناريتين، نحيل، طويل القامة، سريع البديهة، أشبه بذئب منه بإنسان فقلت:

- الحقيقة كنت ماراً من هنا، ولفت انتباهي الشطرنج، إنني لاعب جيد، لقد تعلمت منذ الصغر.

لم أكن قد أفقت من ذهولي، كان الحديث الذي دار بينهما قد روعني، فبدا الكذب واضحاً على وجهي.

وقال والشك في عينيه:

- حسناً تفضل.. هل أنت عربي؟.

- من سورية.

وجلس ثلاثتنا حول الرقعة، كان الدور قد وصل إلى منتصفه، وكانت القطع السوداء قد غرزت في مربعات متقدمة خطرة خيل إلي أنها ستنهي الاشتباك بمات مروعة، فانحنيت فوق الأحجار مستغرقاً في التفكير مما أثارهما فقالا بصوت واحد:

- هل أنت جديد؟.

- نعم.

- متى أتيت؟.

- منذ يومان.

فتنفسا الصعداء وقال الذي فتح الباب:

- لتبحث عن عمل أليس كذلك؟.

- كيف عرفت؟.

- لايوجد في النزل غير هذه الأصناف. حسناً أنا ستيتو وهذا خضر، طالبان في كلية التجارة في الجزائر، لابأس يمكن القول أننا كنا طالبين!.

وصافحتهما مردداً اسمي، ثم ملت من جديد إلى الرقعة، راغباً في

أن يتناسيا أنني كنت أسترق اليهما السمع، ولم أشك في أنهما طالبان فقد كان حديثهما على درجة من الذكاء وأشرت إلى الوزير:

- إن هذه النقلة ستضيق الخناق على الأبيض أكثر.

فقال خضر:

- حسناً، لا تتباله، إننا نعلم أنك كنت تسترق السمع، اننا لصوص وهذا ليس سراً، إننا نبيع مسروقاتنا إلى كل القاطنين في النزل، نحن هنا منذ عامين.

وبدا ستيتو لامبالياً مستحسناً ماقيل فتسائلت:

- أليست نهاية ذلك السجن؟ أليس من الأفضل أن تتوقفا؟.

فشرع يشرح لي كيف أن السرقات الخفيفة في أوروبا لاتودي إلى السجن إلا ثالث أو رابع مرة يُقبض فيها على المرء حيث يحكم عليه شهراً بالكثير إذا لم يتجاوز ماعشر بين يديه على ألف دولار في المرة الواحدة، وأردف «وهكذا إذا قمنا بالسرقة كل يوم فإننا سنجمع مبلغاً كبيراً قبل أن يقبض علينا رابع مرة». فقلت:

- ولكن النشل ذاته إهانة للروح، إنكما لن تجمعا أي مبلغ قبل أن تكونا قد خسرتما نفسيكما.

فأجاب ستيتو:

- إن العمل المرهق أيضاً إهانة للروح، إننا لم نعتد العمل الشاق لقد كنا طالبين، ثم نفذت نقود العائلة، ولا أمل لنا بوظيفة حتى لو تابعنا دراستنا.

يا أيها الوطن المصدِر للمهاجرين، ترى كيف سينتهي بي الحال أنا أيضاً؟

- لست أدري.. إن دانتي يقول ان السرقة تقطع وشائج الحب التي صنعتها الطبيعة بين البشر، إن السارق يتحول إلى زاحفة.

فقال ساخراً:

- حسناً وماذا قال أيضاً؟.

وقال خضر:

- على العكس نحن نشعر بالحبور عند تحقيق نصر ما.
- ستشعر فقط بفرح أسود وغبطة داكنة، ومع مرور الزمن ستشعر بتيبس في الملامح وتعابير الوجه، وسيسوء مزاجك باستمرار إلى أن تقع في هاوية ما. تقول التوراة خبز وملح حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف مع الخصام.
- كنا نفكر منذ مدة، أننا لو بقينا في الجزائر، سيأتي يوم لانعثر فيه حتى على الخبز والملح.

ياصحاري العرب المقدسة، أيتها الأمة الممتدة الشاسعة، أين توارت حضارتك تلك؟ ألهذه الدرجة تضيقين على أحفادك؟.

- وستيتو يرسل كل شهر إلى أهله مبلغاً يجعلهم يعيشون بسلام ويضمن تعليم أخواته الصغار. لقد تحول الشر إلى خير أرأيت؟.
- لم يتحول إلى خير، لأنه سينتهي إلى السجن، وستفجع العائلة كلها.

فاقترب مني ستيتو وقال هامساً:

- سأقول لك سراً، إن أحداً لايستطيع القبض علي، إسأل أهل النزل، إن لي عامين هنا!.

ونظرت إلى الساعة، كان الوقت يمضي:

- أرجو المعذرة. إنني ذاهب، علي أن أجد عملاً.
- والشطرنج؟.
- حسناً. إن الأبيض يكاد يختنق على الرغم من امتلاكه قطعه كاملة.
- لقد مات وانتهى الأمر.

وتناول الوزير وأخذ من مكان بعيد قائلاً «هكذا يموت في نقلتين» ونظر إلي كأنه يقول «مارأيك؟» ولم يكن لي رأي سوى أنه ذكي، وأن ذكاءه تحت تصرف غرائزه المكبوتة وأفعاله الانعكاسية وردود أفعال كل المآسي والفقر والعذاب الذي حل به في الجزائر، وأنه يوغل في ليل طويل لاينتهي يكاد يكون قدراً لنفس مجرحة حتى التشوه.

- سنرافقك، انتظر. نحن أيضاً خارجان، سندلك على مطعم ليهودي عماله دائمي التغيير.

وارتجفت فرحاً:

- وتظن أنه سيقبلني؟
- إن العمل هناك هو الجحيم بعينه، كما أنه يدفع قليلاً، لذلك يقبل الجميع.

وصعدنا الترام، كنت عازماً على العمل بأي أجر يتيح لي البقاء أطول مدة ممكنة، وطوال الطريق تناهى إلي صوتهما، لقد قال ستيتو:

- أنت لاتزال جديداً، النصيحة الرئيسية التي أقدمها لك هي معرفة نفسية وطباع ولفتات أهل المدينة التي أنت فيها، وبالتالي البائعين الذين في المخازن بحيث بالتفاتة سريعة قبل لحظة السرقة يمكنك معرفة إن كانوا لاهين عنك أم لمحوك ويضمرون مكيدة في نفوسهم.
- أشعر أن الدخول إلى محل العطور، مع آخر يزيدني مهارة بكثير يمكن أن يعرضني للغرق، إذ على السباح المبتدىء ألا يخوض في الأماكن العميقة.
- أعلم، أعلم، لذلك سأتنبه إلى أخطائي وأخطائك، يجب أن نعمل كأننا واحد، يجب أن نكون منسجمين نفسياً، إن الشراكة مع آخر أقل مني خبرة يعرضه للخوف، ولكن يزيد من خبرته بينما يقلل تدريجياً من خبرتي.

- أنت متأكد أنه لايوجد كاميرات؟ .
- ألم ترَ بنفسك في المرة السابقة؟ .
- نعم ولكن المكان ضخم، قد تكون مختفية في ركن ما .
- لاشيء، ادخل غير مبال كمشترٍ عادي ولكن استرق النظر إلى كل الذين تمر بهم، إذ أن المفتش غالباً مايكون عند الباب بملابس مدنية يتابع كل من يشتبه به .

والتفت إلي :

- انزل في المحطة القادمة وابحث عن مطعم شالوم .

وعاد وأكمل :

- إذا أحسَّ بك البائعات قبل أن تخطف زجاجة العطر فهذه بسيطة لاتأخذها، أما اذا ارتابوا والزجاجة في جيبك فهذا شأن آخر، لذلك عندما تستحوذ على الشيء اخفض نظراتك لأنهم غالباً مايقرؤ ون في العينين اضطرابك، يجب أن تصل إلى درجة في تمثيل دور الزبون بحيث تنغلق فيها أعين البائعين عنك تماماً، وتكون وسطهم كالمختفي . . إن الغريزة تساعدك في المرحلة الأولى . إن البائعين يصفن لك دائماً نموذج من الزبائن ثقيل الظل، يسأل عن كل شيء ولايشتري يتعين عليك أحياناً تقمص هذه الشخصية، إنها تتيح لك قدر كبير من المخاتلة .
- لن ننسى أن نسرق شريط «عبد الحليم» من مخزن المغربي، قبل عودتنا .
- اللعنة، ماثمن هذا الشريط؟ يجب ألا تظن أن النشل معناه أن تسرق كل شيء، وكل مايمر تحت يدك من لوازم بيتية تافهة، إن مثل هذا يرهقك، يجب ألا تجهد أعصابك من أجل الأشياء الرخيصة .

وتوقف الترام، وودعتهم، وسرعان ماقرأت اللافتة Shaloom ، فدخلت وسألت النادل عن صاحب المطعم، فدلني إلى غرفة في الطابق الأعلى، كان المطعم هادئاً معتماً، ترتعش فيه أنوار خافتة ملونة، وشموع على المناضد، وكان في أركانه مقصورات أكثر رومانسية وجاذبية، تتدلى فوقها أضواء شاحبة ماسية، وفي الوسط مقصورة صغيرة لأربعة أشخاص يُصعد إليها بدرج من مرايا، فتشرف على الصالة، وكانت النادلات يذهبن ويجئن ضاحكات كأن أحداً يدغدغهن . وصعدت الدرج المودي إلى غرفة المكتب، ومن هناك لمحت في مقصورة شاب وفتاة يجلسان في سكينة، يتبادلان إبتسامات رقيقة كأنها من الجنة، لقد سحرتني تلك التعابير الصادقة والالفة العفوية، إن القادم من العالم الثالث يظن أن هذين العاشقين مختلفان موهوبان متميزان، وينسى أن ذلك ثمرة السلام والطمأنينة والحضارة وقلت لليهودي بإنكليزية مرتجفة :

- لقد جئت أبحث عن عمل، هل أنتم بحاجة إلى شخص ما؟ .

كان المدير شاباً جميل المظهر، وسيم الوجه، حاد الكلمات والطباع، وقال بالعربية بلهجة فلسطينية أذهلتني :

- أنت عربي؟ .
- نعم .
- اذهب اذن إلى سعيد، لماذا تجيء إلي؟ .

وأشار إلى رجل يقف وراء البار في الطابق الأرضي . ولم أقل شكراً أو حسناً، كانت لكنته آمرة لاتحتمل أن ألقي عليه نظرة أخرى . وهبطت البدرج كرة أخرى وتأملت الوجهين الغارقين في الأنوار وتأملت البحر المصطخب الهائج في داخلي، ولفحت المكان موسيقا دافئة كأنها لتكمل الرونق الإلهي للصالة، ووقفت إلى البار، فاقترب مني سعيد :

- لقد أرسلني مدير المطعم إليك، إنني أبحث عن عمل.

فقال بلهجة مصرية شديدة الجفاف:

- منذ متى وأنت هنا؟
- منذ يومين.
- من أين؟.
- من سورية.
- هل تريد أن تعمل ثمان ساعات أم إثنتي عشرة؟.
- ثمان.
- ستأخذ ست مائة فلورونا في الشهر وتأكل وتشرب، موافق؟.

فقلت بدون تفكير:

- نعم.
- حسناً انزل.

وأشار إلى الدرج الرهيب الواقع خلف الباب.

- ماالذي سأفعله؟.
- كل شيء.

وهبطت اثنتي عشرة درجة، فوجدت نفسي في قبو شديد الحرارة كأن لاهواء فيه، فراحت عيناي تبحثان عن نافذة على الفور. كان مؤلفاً من مطبخ أبيض الأرضية مجاور لدهليز تودي نهايته إلى قبو آخر معتم بدون بلاط أو دهان أو كهرباء، عند سقفه طاقة مربعة تسدي إلى الشارع يمكن بواسطتها إخراج أكياس الذبالة المتراكمة هناك أو إدخال المواد التموينية من الرصيف إلى القبو. وكان المطبخ والدهليز حسني الاضاءة وُضع أمامهما في الفسحة التي وقفت فيها آلة لتنظيف الصحون وأخرى للتجفيف، أما المطبخ فحوى آلات تقطيع البصل وعصر الطماطم، وحوضاً لغسل الأوعية الكبيرة وفرناً

وعدد الطبخ وأشياء أخرى لم أرها كان طباخ تونسي قد انفرد بها ومنع الجميع من الاقتراب طيلة اليوم. وفي الدهليز كانت تقع برادات الطعام والشراب وقد عبق ببخار مكنة التجفيف ورائحة الطبيخ وحرارة الموقد. وتجولت عيناي طويلاً على الجدران المطلية بالأبيض فلم أعثر على أية نافذة سوى الطاقة المفضية إلى رصيف الشارع.

ولايحتاج المرء ليصيخ السمع ليتأمل مبلغ الفوضى التي تكتنف القبو، كان هناك خمسة عمال مصريين وطباخ ويهودي يراقب وينقل الأطباق الجاهزة إلى أعلى، وكان الصراخ والشتائم ينطلقان من كل أرجاء القبو، وعلى الوجوه ذلك المقت الشديد الناشىء عن سوء التفاهم، وعن حساسية مزمنة ناجمة عن الاحتكاك الطويل والارهاق. وكان كل منهم يحاول انجاز مابين يديه بأسرع مايمكن، فيذهبون ويجيئون ويتخبطون بين المكنات والبرادات، وكان الطباخ التونسي الوحيد الذي يقوم بدوره بهدوء وثقة دون أن يغادر مكانه، وأسلمني اليهودي إليه قائلاً بلهجة فلسطينية:

- من هنا تتلقى الأوامر.

ونظر إلي الطباخ التونسي وتبدى لي كأنه يقول «كيف يقبلون شاباً هزيلاً بهذه الصورة؟» وأشار إلى وعاء كبير ملقى في حوض الغسيل وقال «دير الوعاء» فأجبته «ماذا؟» فنظر إلي وقد كور حدقتيه مستفهماً ثم أمسك الوعاء وأراني أسفله المغطى بالسواد وصاح «نظف هذا»، وعاد إلى عمله، وانحنيت على الحوض محاولاً إزالة البقعة السوداء بواسطة فرشاة حديدية، ولكن بلا فائدة، كانت قد التصقت من جراء احتراق شيء لمدة طويلة على نار حامية، وخجلت من اليأس فجعلت أقوم بكل ماأستطيع، كان بخار آلة التجفيف يلفح وجهي بدون انقطاع، ومعصرة الطماطم تصفر بلا هوادة، وكان الداخلون والخارجون يلقون نظرة إلي ثم يتهامسون فيما بينهم

ويمضون، وسرعان ماتساقط من جبيني عرق غزير، وتبلل قميصي وقدمي.
وجاء أحدهم لا هثاً وقال للطباخ: «وصلت صناديق السلاطعين» فنهرني التونسي من كتفي «اذهب وساعده بإنزال الصناديق»، كانت الضوضاء والسباب يملآن المطبخ والرواق والسم يطفح من وجوه العاملين بحيث ما ان تقترب من أحدهم حتى ينفجر بك غاضباً، وسألته ونحن ماضيان «من أين سنجلب الصناديق؟» فأجاب وكأنه حاقد علي منذ عشرين سنة «ولا كلمة..ولا كلمة». ومضى بي إلى القبو المعتم، وصعد سلم مثبت على الطاقة وخرج إلى الرصيف، كانت أرضية القبو ملوثة بالمياه السائلة من أكياس الزبالة المثقوبة، وكانت الجدران مليئة بالحشرات والعناكب، وفي مكان ما وراء الأكياس كان هناك محرك ضخم قذر يستعمل لشفط تلك المياه. ودوى الأمر من فوق «هيا استلم» وأُلقي صندوق ضخم بارد على السلم، وأوقفته بكل شيء أملكه من حيوية. «لاتضعه على المياه خذه إلى الرواق». وكدت أقول له لا أستطيع، ولكنه كان قد مضى ليجلب غيره، فحملته مسنداً على صدري بكل ماعندي من طاقة، وألقيته ثم عدت لاهثاً مخوضاً في الوحل فقال لي أين كنت؟ وهز رأسه علامة العصبان والتأخر وألقى بالثاني الذي سقط من يديَ عند حافة الرواق وتناثرت محتوياته أمامي فصعقت من الرعب كان مليئاً بسلاطعين كبيرة حمراء لاتزال حية تخطو، ورآني أحدهم هلِعاً، فقال «لا عليك»، وجلب ملقط حديدي كبير وجعل يعيدهم إلى الصندوق، وأسرعت لأجلب الثالث، فجاء ورائي وحملناه سوية، حتى تراص ستة صناديق في الرواق، فعاد إلى عمله وراء آلة غسل الصحون، وهبط الآخر من الشارع، وأخذنا ننقل الصناديق إلى قرب التونسي، الذي فتح للحال دستاً ضخماً مليئاً بماء يغلي، وسارع إلى إفراغ الصناديق فيه، وتلوّت السلاطعين من الألم، ونظر المصري إليها ووجهه مليء بالتشفي، كأنها

السبب في التعب الذي حل به، وأغلق الطباخ الدست ونظر إلي قائلاً:

- دير البصل.

وفهمت أن أقشر البصل بدلاً عن المصري الذي راح يلقي الصناديق الفارغة فوق أكياس الزبالة، وتساقطت دموعي مدراراً، وتباطأت يداي، فهبط علي المصري كالقدر وقال ساخراً:

- هل تشعر بشيء؟.

وأخذ السكين بحنق من يدي وجعل يقطع البصل بسرعة البرق قائلاً:

- عد إلى تنظيف الوعاء.

فقلت:

- لقد أعياني.

فأخذ التونسي مبرداً من على الرف وقال «استعمل هذا» فرحت أصدر صريراً فاق كل الضجة التي في المكان، واقترب مني اليهودي وهز رأسه وهو يرنو إلى الوعاء ثم ذهب وما إن غدا نظيفاً وبدأت بإلتقاط أنفاسي حتى قال التونسي:

- دير البطاطا.

وخيل إلي أن بإمكانه الاستغناء عن كل أفعال اللغة العربية واستبدالها بـ«دير» مرفقة بمفعول به، ونظرت إليه كأنني أقول انتظر حتى أستجمع قواي ولكنه أشار إلى البطاطس كأنني لم أسمع فجعلت أسير مترنحاً ونظرت إلى الكومة التي يحتاج انجازها أسبوعاً وشعرت بالذعر، أحسست أنني أكاد أفقد نفسي، فقلت «هل هذا الماء للشرب» فأجاب «اذهب واشرب من البراد» فمضيت إلى الرواق، وسألت المصري الذي التقط السلاطعين عن ثلاجة الماء فأشار إليها، فوضعت يدي على المقبض وفتحتها فلوح وجهي برودة عذبة أعادت إليه الحياة، وأمسكت زجاجة الكولا ووضعتها على فمي حتى

كادت تفرغ فسألني وكان اسمه حبيب:

- من أين أتيت؟.

- من سورية.

- هل أنت متعلم؟.

- كيف عرفت؟.

- أنا أيضاً طبيب.. طبيب بيطري.

فقلت مازحاً:

- ولماذا أنت هنا؟ ألا تمرض الحيوانات عندكم؟.

فقال بصوت عال وقد أشرق وجهه:

- بل قل ماتت.

وفجأة هبط سعيد صائحاً:

- جاءت سيارة الذبالة.. أكياس الذبالة ياشباب.

وأسرع إلي أحدهم راجفاً من التعب والغيظ وقال:

- اتبعني.

وعدت ثانية إلى قبو الظلمات، وبينما تسلق الآخر السلم وصعد إلى الشارع، شرعت أنا بتسلق السلم وأكياس الذبالة في يدي واحداً واحداً، وكان معظمها مثقوب أخذ يسح على جسدي وملابسي، حتى إذا انتهينا هبط ورائي وأدار المحرك قائلاً اشفط الوحل من القبوومضى تاركاً إياي بين قذارة لم أدر كيف تشفط، كانت الأرضية متعرجة من الصعب وضع عليها مسطرة المولد، فعمدت إلى نزعها وسددت الفوهة إلى البؤر الموحلة، ومع ذلك لم يكن بالإمكان فعل الكثير لقد كان القبوبدون إنارة، فأعدت المحرك إلى مكانه وما إن خرجت حتى لوح إلي التونسي من بعيد بأن «تعال»، وأشار إلى طبق من الطعام بهدوء قائلاً:

- دير الأكل.

كان قد حضر لي شرائحاً من اللحم مع بطاطا مسلوقة ودراقة، وكدت أقول له شكراً ولكن تراءى لي أنها ستبدو مضحكة في مثل هذا الجو، فأخذت الطبق وانزويت وحدي قرب براد الكولا، كنت أريد أن أستمتع بوحدتي قليلاً ولكن الهواء كان خانقاً يستفز الأعصاب ففتحت البراد وجلست قربه مفتوحاً، كنت أنصت إليهم يأكلون في المطبخ المجاور، وكنت عازم على أن أتناول زجاجة الكولا حالما ألمح أحدهم قادماً إلى الرواق جاعلاً أنني قد فتحت البراد للتو، وقد حضر حبيب فعلاً جالباً إلي عنباً فندت عني حركة فقال:

- كُل، لاتخف هذا ليس لحم خنزير.

وأردف مقهقهاً وهو يعود:

- هذا لحم سلاطعين.

ونظرت إلى الصناديق الفارغة المصفوفة في القبو، وقرأت عليها «صنعت في كندا» وتساءلت بدهشة هل استوردت من هناك وجلبت حية لتؤكل هنا؟ وسمعت أحدهم يسأل الطباخ «مارأيك بالقادم الجديد؟» وأجابه «بطيء.. بطيء.. اللعنة، لاتذكر شيء أمام اليهودي» وشعرت بعد هذا الكلام بنقصان الهمة، وبفتور، وكانت راحة الطعام قد جعلتني أقل قدرة على استئناف العمل، كان قد مضى خمس ساعات وكان الطباخ قد رحل، وبدأ المصريون الأربعة يرمون إلي بأثقل الأعمال، وكان حبيب الوحيد الذي يعمل بصمت ودون تذمر، ولست أدري كيف انقضت الثلاث ساعات الأخيرة وكم من الشتائم قد أطلقت علي، ولكنني استطعت أن أصبر فقط لأنني قررت عدم المجيء في اليوم التالي، لقد شعرت أن أثمن مافي نفسي يتمزق ويتبدد، وأنني لوبقيت عشرة أيام أخرى لانقلبت خنزيراً، وتذكرت

الجزائري وهو يقول «إن العمل أيضاً إهانة للروح».

وقال لي حبيب وأنا أهم بالانصراف:

- يجب أن تكون هنا في العاشرة صباحاً.
- لن آتي بعد... المعذرة.
- ولكن لماذا؟ هذا هو اليوم الأول، بعدها ستعتاد.
- القبو حار لايطاق.
- في الشتاء الوضع مختلف.
- لا، الوداع.

فصاح وأنا أصعد الدرج:

- قل لسعيد أنك ستأتي.. وإلا لن يعطيك أجرة اليوم.

خرجت لا ألوي على شيء، ورحت أهيم على وجهي في الليل، ثم صعدت الترام: ياجدي ياجدي هل رجعت على أجنحة الندم؟ هل ظننت بشرائك الدجاجة ستعيد الماضي؟ كم ذهل صاحب المخزن لمحياك؟ هل ظننت أنك تشتري الماضي وترجع إلى الزوجة المنتظرة والبيت السعيد؟

٤

كان اليأس الذي لحق بي من مطعم اليهودي قد خيم على يومي التالي وأنا أجوب الشوارع، وكان كل مكان أدخله وأُرفض يوقظ في نفسي تلك المرارة، وغالباً ماكانت تودعني الضحكات أثناء خروجي فتترك في نفسي جروحاً لاتكاد تندمل حتى يعقبها إهانة أخرى في مكان جديد. وكانت نقودي تنفذ فأصاب بالرعب وأبقى طيلة النهار دون طعام، ولكن كان علي باستمرار دفع أجر الترام للطواف من مكان إلى آخر. وكان المطر لاينفك يتساقط ويبلل ملابسي فأصاب بالدوار من الجوع والتعب، واشتريت زجاجة كولا وشعرت بالأسف لضياع الثمن وقلت لن أصرف قرشاً آخر طيلة اليوم ولكنني اكتشفت بعد قليل أن علي دفع نصف فلورون آخر لكي أبولها. وصادفت فلسطينياً قرب محطة للمترو، وعين لي مطعماً قال أنه ترك العمل فيه منذ أسبوع، فسرت زهاء أربعين دقيقة، كان الغروب قد سقط فوق المدينة، ووجدت نفسي في مكان مليء بالأشجار، ودخلت مبللاً من رأسي حتى أخمص قدمي، وكانت فتاتان أنيقتان تقفان وراء البار، نظرتا إلي بتعجب وأجابتني احداهما:

- هل تملك أوراق؟.
- لا.

فنظرت إلى الأخرى ثم تبسمتا وهما يرنوان بإزدراء إلي، وأردفت:

- هل تتكلم الهولندية؟.

فقلت:

- لا.

فتحولت الابتسامة إلى ضحكات ساخرة مما جعلني أغادر دون إكمال الحديث فانفجرتا ضاحكتين أمام الزبائن وقلت ياللجحيم. وسرت بين الأشجار فتراءت لي مياه بحيرة تعبق بالسحر، كان الضباب يلامس مياهها، والبط يعوم على صفحتها، فسرت وحيداً على الضفة في عتمة الغروب، وفجأة انهارت كل المشاكل السمجة، وتمزق الحجاب الشفاف الذي يفصل الحقيقة عن الحلم، وتحول كل شيء إلى أخيلة باردة، تلاشى التعب والقهر والعذاب ولم يبق سوى بحيرة مسحورة تحوم حولها الطيور، جعلت العالم خفيفاً عذباً. ولمحت امرأة تجر كلباً صغيراً رمادياً وتطعم البط، كانت وحيدة أيضاً، حزينة الوجه كسماء الموج الشاحبة، ولم ينقطع الرذاذ، وكنا كلانا غير مكترثين، سرنا طويلاً وحيدين صامتين، وكانت الطيور التي تحلق فوق الموج تلتقط الفتات قبل أن يصل إلى البط، وكانت الأشجار قد بدأ يغشاها الظلام، ومع ذلك كم من المحال أن نلتقي؟ وردَّت إلى ذاكرتي الحكمة الهندية القديمة الغني والفقير لايلتقيان، الحكيم والجاهل لايلتقيان، الصغير والكبير لايلتقيان وقلت في نفسي الانسان والانسان لايلتقيان. وانحدرت غيوم مظلمة كسواد الليل، واختفت المرأة، وأقفرت الحديقة، ولبثت وحدي. وانهمر المطر كشلال، وتطاير الرذاذ فوق البحيرة، فهرعت إلى مرآب مجاور، حيث وجدت نفسي بين مجموعة من شاربي الجعة المنسيين. ثم قصدت الترام وعدت إلى وسط المدينة أسير على غير هدى، أطرق أبواب الحانات والفنادق والمطاعم بلا جدوى، لم

يكن في المدينة عملاً شاغراً لشخص واحد. وكان الناس يمرون بي ضاحكين غير مبالين مزدرين، وخيل إلي أن على الفقير ألا ينتظر أية رحمة من القدر وأن البقاء للأصلح هو القانون الوحيد الذي يحكم العالم، وأية شفقة تبدر من الأغنياء بشكل من الأشكال ماهي إلا انقاذ لأنفسهم أولاً.

اعتراني اضطراب شديد ونقمة وخيل إلي أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ نفسي إلا بإحدى طريقتين: إما أن أسرق بنكاً أو أصير شيوعياً، وتملكني القنوط، وجعلت المياه تسح من قبعتي، وهد الجوع قواي، ولفحت جسدي ريح شديدة وأنا أعبر جسراً فوق النهر، خلت بعدها أنني سأصاب بالحمى، فقدت الثقة بنفسي، وتراءى لي أنني عاجز ضعيف وأن حياتي لن تكون سوى عذاب موصول، وبدأت تتراقص أمامي نقائصي، وأشباحي وآلام الماضي، وكنت أردد: «إن أي نوع من الصبر لايجدي» عندما تناهت إلي ألحان وموسيقا شرقية يتهادى فيها ذلك الأنين الذي يمتزج في القلب بلوعة تجعلك تقبل عليه كغريق لمح فجأة شجرة طافية. كان ثمة مطعم تركي تتصاعد منه رائحة الشواء إلى الخارج فدخلت ووجدت نفسي ضائعاً في صالة شرقية رحبة كالمعجزة، رسم على جدرانها لوحات ملونة فارسية وهندية وعربية، رجال بعمائم وتجار حرير وسجاد، ونساء متبرجات، وراقصات، وأخريات استترن بخمارهن، وفي الوسط على الحائط الرئيسي جلست شهرزاد عند قدمي الملك بخشوع تحكي، وفي نهاية الصالة على مصطبة تمثال صغير لابن سينا، علقت فوقه صورة للرئيس التركي. وكان يشيع في المكان دفء عميق، ففي زاويته يقع فرن قرميدي صغير، تضطرم النار فيه، وبداخله شاب تركي يُنضج أرغفة شرقية طازجة، لقد كان ذلك الفرن الصغير المستطيل بقرميده الأحمر وجحره الملتهب وعامله الممسك بالمجرفة أجمل ما في المكان، وجلست إلى احدى المناضد وكان الزبائن يأكلون مترنمين

مرددين بصوت عال الأغنية التركية الحميمة التي تشيع في المكان، وبدت تلك الفوضى الممزوجة بأصوات النادل والطاهي والفران هي مايضفي على المكان حيويته وعذوبته. ولمحت هولندياً وزوجته يجلسان قرب لوحة شهرزاد وقد بديا بصمت مستمتعين بسحر المكان، لقد شعرا هما أيضاً برفع الكلفة وببساطة الحياة كأنهما في استنبول أو الاسكندرية. وأمامي إلى طاولة بجوار الطاهي جلس شاب تركي بجانب فتاة ذات عينين سوداوين وشعر فاحم ملأ نفسي بالذكريات. وتناولت طعامي وأنا أشعر أن الحياة قد رُدت إلي، وأن الإحمرار يعلو وجهي الآن، لقد توازن العالم من جديد، وكف عن القسوة والظلم، وعادت إلى نفسي عذوبتها، تأملت المكان وأنا أشعر بثقتي تعود إلي، وبتصميمي وعزيمتي يرجعان كانت الأغاني طافحة بالحزن الذي يحمل في طياته الخلاص، كانت شجية شجية توحي أن الحياة بسالة كفاح وأغنية.

وغادرت المكان آسفاً كمن يغادر وطنه، لقد كنت هادئاً طرباً والآن أنا من جديد شريد ضائع. كان الليل قد تأخر، فسرت في الشارع الذي يقود إلى ترام القرية، ومالت بي الطريق إلى شارع غريب مضيء، تخترقه قناة ككثير من شوارع أمستردام، وعلى الجانبين غرف بلورية ذات أضواء حمراء زاهية، كانت تلك المرة الأولى التي تقع عيناي فيها على شارع المومسات ذاك. كان داخل كل غرفة امرأة عارية، وكان الناس يتنزهون هناك، وكانت النساء يضحكن. كانت ضفتا القناة مضاءتين بأنوار حمراء واهنة، وكان الشارع طويلاً في نهايته تقع كاتدرائية ضخمة، وأمامها مباشرة علب الزنجيات العاريات، يقرعن لك الزجاج ما إن تمر. وعلى طول القناة وأمام الكنيسة وحولها تنتشر مجموعة كبيرة من مدمني المخدرات، وكان كثير منهم في حال تعجز المرء عن الوصف. كانت ذقونهم طويلة وشعرهم مشعث،

ثيابهم رثة وأيديهم ممتلئة بدماء الحقن، يقتعدون الأرصفة وحافة القناة، وأنوفهم تسيل والبول يغرق ملابسهم، رؤوسهم محنية خدرين لايشعرون بشيء.

ولم تخالجني أية رغبة في ممارسة الجنس، كنت لاأزال مرتعداً من الايدز ومن قلة النقود ومن الشارع الجديد بشكل عام، وتفحصت طويلاً أجساد الغانيات، صفراوات وبيضاوات وسمراوات وسوداوات من كل أنحاء العالم، لم يكن بينهن أبداً مسلمات عربيات أو تركيات كان معظمهن من أمريكا اللاتينية.

وعند نهاية الشارع لمحت امرأة سمراء ترتدي ملابس فاضحة تظهر عجيزة كبيرة وثديين ثقيلين، وفكرت: هل هي عاهرة؟ ولكن عينيها السوداوين منعاني من المرور بها مرور الكرام، فرحت أرقبها من خلال زجاج شاحنة تواريت وراءها، كانت تدخن بعصبية كأنها تنتظر أحداً، وشعرها الطويل الأسود يرتاح بدلال على كتفيها. وهمست شفتاي: هل هي عربية؟ هل هي عربية؟ ووضعت نظارة سوداء وأطفأت السيجارة على الرصيف ومضت. وجعلت أسير وراءها مختفياً، فلم ترني أبداً، برغم أنها تلفتت مرات عديدة وكان على وجهها ذلك الاحساس «هل يتبعني أحد؟» ولكنني كنت وراءها كالريح، موجود وغير موجود. لم أكن أريد أن أظهر فأنا نفسي لم أكن أعلم ماأريد، كنت أفكر أين رأيت هاتين العينين؟ أين؟ وطيلة الطريق كان يمر بخاطري أولئك النسوة اللواتي صادفتهن دون فائدة.. دون فائدة.. وصارت تسرع وبدا شعرها محمولاً على النسيم، لقد استشعرت خطراً ما، إن من يرقبها أكثر بكثير من غامض، ليست هكذا عادة الهولنديين، اجتازت حياً غريباً لم أر مثله في المدينة، بوابات وأزقة وسراديب كأنها أطلال حضارة انقرضت. ووقفت قرب مدخل، تلفتت حائرة ثم ولجت.

تابعت الطريق إلى محطة الترام، وسرت بحذاء السكة، ضائعاً مبلبلاً متشككاً، لم أدر لماذا أسير، ما الذي يقودني؟ ولكن كان يدفعني شيء ما، سراب ما، كمن يفتش عن سعادة غامضة مدفونة في أعمق أعماق الروح. أين رأيت هاتين العينين؟ أين؟ ومر ترام القرية فصعدت، وغاب في الليل.

وألقيت رأسي على الوسادة: من يستطيع أن يفعل مثلك ياجدي؟ أن يبيع كعطر بوله في زجاجات؟ وقالت جدتي أنه عندما وصل لم يكن يملك أي شيء آخر يبيعه لكي يقتات، وذات يوم تعجب من بوله الأصفر، ودهش أن هذا اللون لايتغير أبداً، وحينها فقط خطرت في باله تلك الفكرة. واستمرت جدتي بذهول: «وذات يوم أصبح يلاحظ أن مقادير بوله غدت كبيرة» ولكنك لن تبول إلا بالمقدار الذي تشرب به ياجدي، إذ لن يأتي أي شيء من مكان غريب مثلاً.

* * *

وقبل أن أبحر في لجة من النوم قرع سمعي طرق على الباب، فنهضت وألفيت ستيتو واقفاً قائلاً:

- أرجوك اذهب إلى محمد اللبناني على أحد أن ينام عنده.

ودهشت لهذه المقولة وكان يتوقع ذلك فاكمل:

- انه يرتجف يخشى أن تجيئه النوبة، أنا لاأستطيع.. لقد سئمت من كل هذا.
- ولكن مابه؟.. أية نوبة؟.
- إنه يخشى أن يرى في حلمه أباه يضرب والدته.. أسرع.. إنه بحاجة إلى أحد.

وغدا الأمر أكثر غموضاً، ولكنني تبعته بملابس النوم وصعدنا إلى الطابق العلوي، حيث أدخلني إلى غرفة شاب ملتح، مبعثر الشعر، غامض النظرات، مضطرب، مستلقي على أريكة ضيقة، تبدى عن ابتسامة طيبة ووجه حالم منهك وقدمني إليه الجزائري متهرباً:

- سيبيت عندك الليلة.. إنه من سورية.. عمت مساء.

وخرج مغلقاً الباب وراءه. ووجدت نفسي في غرفة مضيئة، فيها كل الوسائل التي تبعث الراحة في النفس، حوض من السمك، عصافير، لوحات زيتية، تماثيل ملونة صغيرة وكبيرة وضعت فوق التلفزيون وأجهزة التسجيل، وسرير عريض ملتصق بالأرض قربه زجاجة فارغة وكأس من الجعة، وشعرت بالراحة والهدوء لمرأى هذه الأشياء البديعة المرتبة وقلت:

- مساء الخير.

فأجاب وساعده تحت رأسه بصوت خرج مجهداً كأن علي أن لا أقدم على الكلام:

- حسناً، اجلس.. سأهدأ، لقد تناولت حبتين.

وجلست ناظراً إليه، لقد بدا لي وجهه حاد الذكاء ولكنه محبط، كمن أصيب بخيبة ما، وكانت عيناه غريبتين كأنهما مزيج من مئات القصص ولكنهما ذاتا عنفوان منطفىء، بحيث أن أية نظرة سريعة من انسان عابر لن تحدج سوى وجه أبيض بليد. وأجلت النظر في الغرفة من جديد وسقطت عيناي على لوحة كئيبة تبعث الأسى في النفس: كانت هناك سماء غائمة مكدرة فوق بحر صاخب، ولاح بين غيومها المعتمة بياض سحب أخرى بعيدة، وعلى الضفة كانت الأشجار تنوء من الريح، والحجارة الصفراء والرمادية تكاد تتزحزح من مكانها، فينقلب بعضها إلى ترعة تجري من الغابة الكثيفة. هناك سار شيخ فقير بجلباب بني اللون وعلى ظهره كيس من

المؤونة وإلى جانبه حفيدته الشابة. كانا قد اجتازا الغابة وراحا تلفحهما الرياح الهابة من البحر يتبعان الترعة إلى مكان مجهول.

وحدقت إليها زهاء عشر دقائق، فقال:

- هل أعجبتك؟.
- إنها حزينة.. إنها قصة.
- نعم، يبدو الشيخ قد ترك مكاناً فقد الأمل أن يجد قوته فيه.

فقلت:

- إنه مثلنا.
- أجل، إنه مثلنا.. لذلك استهوتني.

وقلت:

- ها أنت هادىء.. إنك لطيف ووسيم، لماذا تطلق ذقنك؟.
- لأنني سئمت الحلاقة، سئمت كل شيء.. لا أعرف إلى أين أهرب من نفسي.. إنني أتطير منذ شهور من حجرتي، من الطعام والشراب والنوم، إنني متعب مهجور لايبال بي أحد، لقد جففت الغربة آخر قطرة من دمي وكادت حركاتي المكررة المقيتة تصبح هاجساً أو رعباً، إنني لاأدري أين ألقي بنفسي لأهرب من الآلية، لا مشاعر لا محبة لا اهتمامات، لم أعد سوى آلة بدأت تتآكل.

ورنا إلى وجهي وتراءى إليه أنني لم أفهم فأكمل:

- ماذا أقول؟ كأن الشمس لا تشرق ولا تغيب، فقدت حياتي بهاءها، الأيام تمر كما الشهور كما السنين وقلبي يمتلىء بالندوب.

وعاد وحدق بالشيخ التائه، وبدا خدراً كأنه سيصمت، لقد خيل إليه أنني فهمت كل شيء، فتكلمت:

ولكن ما سر ذلك؟.

- سره أنني غدوت بليداً ضجراً، وليست بلادتي سوى لااهتمامي والتي بدورها سأمي من التجوال على هامش المجتمع. أما رعبي فهو تراكم هذه البلادة، ومع هذا وفي السنوات الأولى لغربتي بذلت قصارى ماأملكه من محبة للرقي إلى حد الكمال مع أولئك الأوروبيين المتحضرين الوقورين الذين أصادفهم، إلى حد أنني أرى في نظراتهم كأنهم يقولون «أأنت فعلاً من العالم الثالث؟» ولكنني ظللت دائماً خارج دائرة أولئك البشر البارهين المحايدين الصامتين، كنت أحصل على الاعتراف بأنني لطيفاً جداً، دائم الابتسام، ولكنني لم أكن لأستطيع أن أكون منهم إذا لم أولد مرة ثانية بينهم ومن جديد. إن الأمور التي كانوا يخوضونها فيما بينهم أبداً كانت مجاهل بالنسبة لي، أما أشواقي وفلسفتي وموضوعاتي فقد كانت بدائية ومنسية بالنسبة إليهم. وذلك كان في أحسن الأحوال، أي في الأوقات التي كنت أجد مجتمعاً حولي، مبرراً أن أكون فيه، كنادي البلياردو وأماكن العمل، أما معظم الأحيان فقد كنت متشرداً يجوب القرى والطرقات مكتشفاً، ولتجولي الكثير بين بلد وآخر ومدينة وأخرى كاليهودي الضال، بدأت أحس أنني أعرف كل شيء. أعرف أنه لا أمل لي في حياة اجتماعية حميمة ولا سير على خطى القلب. وأنني هنا فقط لأكدح بلا روح وبلا كلل، ولأنني قطعت أوروبا من سيبيريا إلى بحر المانش، ولأن معرفتي غدت غزيرة ولم يعد يدهشني شيء، تضاءل يوماً بعد يوم اهتمامي بالناس الذين أنا بالنسبة لهم في أحسن الأحوال غريب مهذب، وألفت عيناي الطبيعة الساحرة الأوروبية، وخبا بي شبق الشباب، فغدوت بليداً كما تراني ضجراً كشيخ في التسعين.

- لقد فهمت تريد العودة إلى لبنان، حقاً لا فرحة بدون وطن.

وند عنه صوت جريح كأنما لم يصدر منه، قائلاً وفي صدره شيء يتمزق:

- وطن. . . . لا ، لا وطن لي، لا وطن.

وبدا هستيرياً كأن النوبة ستعود إليه، وصاح وهو ينظر إلى السقف مسعوراً:

- لا عودة. . لا وطن.

واهتجت أنا أيضاً، وشعرت بالضيق، لم أكن في وضع نفسي جيد وصدر منشرح، كنت أعلم أن أمامي أياماً صعبة وعلي الاحتفاظ بأعصابي سليمة حتى تنقضي، وقلت لأجعله ينسى الكلمة التي سببت له الهياج:

- هل قلت قطعت أوروبا من سيبيريا إلى بحر المانش؟.

فزاد ارتجافه حتى أحسست كأن قوائم الأريكة تهتز به، وتناول علبة «القاليوم» وتجرع حبتين وراح ينظر إلى السقف، ورغم احساسي بالاشفاق، تمنيت لو أنني لم آت، كانت أعصابي سيئة، زادها ضعفاً وضعي الشاذ ومشاكلي، كنت ببساطة في غنى عن هذا، كنت أعلم أن غريقاً لاينقذ غريقاً، وكنت أتسائل لماذا لايذهب إلى طبيب؟ ولكنني أدركت أن الطبيب قد لايكون وصف له غير هذه الحبوب. واستلقى من جديد ناظراً إلى السقف، وفكرت أنه قد يغفو الآن ولكنه قال بصوت جامد كأنه يخرج من قبر:

- هل تشرب قليلاً من الجعة؟.

ولم أجب بشيء، إذ لم يكن هذا سؤالاً، كان أشبه بصوت صادر عن موتى. وسرقه النوم بعد قليل وقمت بتغطيته، وأطفأت الضوء، وانسللت إلى السرير فلم يبق غير السمكات المضيئات، والقمر ينير وجه الشيخ المسافر، ولكن ما ان أغمضت عيني حتى صم أذني عواء شديد مسعور، ومن الضوء

الواهن الذي ألقاه القمر على الحجرة رأيته يجلس على حافة الأريكة ويعوي، أقول يعوي لأنه لم يكن صوتاً بشرياً قط، كان فحيحاً لمخلوق غريب غرزت شوكة في قلبه، وسمعت طرقات على الباب، فنهضت وأضأت النور وكان قد هدأ قليلاً واستلقى، ففتحت الباب فظهر أحدهم وقال بلهجة مغربية:

- هل نطلب سيارة الاسعاف؟.

- لست أدري.

- أنت معه؟. . لا بأس، يجب ألا تدعه ينام، يجب أن تتحدث معه حتى الصباح، هذه الحالة تأتيه كل شهر.

- لماذا لانطلب سيارة الاسعاف؟.

- أخشى أن يصل الأمر للشرطة، ان المستشفى ستطلب نفقات العلاج، وليس معه إقامة هنا.

- لا أخفي عنك من المرعب البقاء هنا.

- إنه لايؤذي، لقد جاءه الكابوس ولن يعاوده قبل شهر، إذا احتجت إلى شيء أنا في الغرفة المجاورة.

وأغلقت الباب ونظرت إليه، كان وجهه شديد الشحوب، ولم أدر ماذا أفعل، كيف عليه ألا ينام بعد أن تجرع أربعة حبوب مهدئة؟ وتركته يسترخ قليلاً ثم اسندت ظهره إلى وسادة، فقال:

- هل تعلم بما حلمت؟.

وأكمل:

- لقد شاهدت نفسي في دارنا، وكان والدي يرغي ويزبد، فمضيت إلى حجرة والدتي فألفيتها راقدة تئن، ورأيت رقبتها مشققة مقززة كأنها مزقت ببلطة شنيعة مرعبة، واندفعت كأنني لأقتله لامحالة، ولكن أمي مدت

كفهـا باتجاهي وكانت عيناها تولولان «لا . . سيثور أكثر»، واستندت من جديد على الوسادة كأنها لم تعد قادرة على حمل البقية القليلة الباقية من الـرقبـة المحطمة، كانت أختي تزعق في المطبخ لسبب لا أدريه ووالدي جالس في مكانه الأبدي كصنم مرعب من حجر.

وبدا كأنه يرتعد من الحلم، وغدا أكثر شحوباً ولكنه أكمل:

- لقـد كان أبي بالنسبـة لأمي كليـل طويـل من الزوابع والبروق والعواصف على بيت رث يتـآكـل تدريجيـاً، وكنا بوقوفنا ونحن صغار بجانب والدتي لايـزيـده إلا سعيـراً، وإنها لمن اللحظات التي تمزق قلبي أشلاء، تلك الليـالي التي كنـا نسمع فيها والدتنا تبكي في الغرفة المجاورة بينما ينهال أبي عليها ضرباً.

واصفر اصفرار الموتى، وبدا لي كأنما يلذ له تعذيب نفسه:

- وذات ليلة استفقت عليه وهو يحطم كل شيء، كل مافي البيت ويصيح:
- أنا هو رب العائلة. . أتيت لأربيكم. . لا لتربوني.

ويتنقـل من حجـرة إلى أخـرى ولايبقي على شيء، وكـانت والـدتي تستعطفه وتبكي، ويلطمها بلا هوادة، ولم يكن يبدو لي أنها تتأثر بقدر ما كان يروعهـا أنني أمـامهـا وأنني أراقب كل شيء، وزاد من مرارتي شعـوري كم نحن فقـراء وكم هذه الأشيـاء المحطمـة بحـاجة إلى نقود لكي تسترد، كان الجيـران يطـرقـون البـاب بعنف وفي اللحظـة التي قررت فيها والدتي فتحه أمسكها من شعرها بضراوة ورمى بها إلى الأرض، وأغمي علي.

ومنـذ ذلـك اليـوم ينقلني النـوم إلى جهنم، وتطـرق رأسي الكوابيس كمطرقة الحدادين.

فقلت:

- لأنك تلهو بكرة النار، تقلبها بين يديك بدلاً من أن ترميها أو تنساها.

- وكيف أنسى إذا كان لايزال على حاله، وفي هذه الليلة بالذات فعل ذلك.
- حسناً لماذا لايحدث الطلاق اذن؟.
- لأن الطلاق يهدم سمعة العائلة، ولأنه يرمي بوالدتي إلى الشارع، ألست من الوطن العربي؟

نعم. . من هناك. . من هناك. .

ورددت لأخرج به من الدوامة تلك:

- هل قلت قطعت أوروبا من سيبيريا إلى بحر المانش؟.

فقال متنهداً وقد غدت عيناه يائستين بصوت وقور خدر هادىء:

- لقد سافرت بنفس القدر الذي ظلم به أبي أمي.

وأضاف بصوت أكثر توازناً:

- لقـد منحني القـدر ذات يوم فرصـة الفـرار من بيت الأحـزان ذاك، عندما أرسلتني المدرسة للتعلم في روسيا، وقد جاء موقعي في مدينة نوڤاسيبيرسك. . . .

وقاطعته دهشاً:

- أنت درست في روسيا؟.
- أجل، ولقد تراءى إلي في ذلك الوقت أنني ولدت من جديد كان الصيف في بدايتـه، وكـانت سيبيـريـا أرض جد ساحرة وشاسعة، لقد زرنا بحيرة البـايكـال، سهـول التوندرا وغابات التايغا. فأحسست كأنني في الجنة فبدأت أنظر بذهول إلى كل شيء يتملكني شعور تماماً أنني عدت طفلاً، وهـذه معلمتي مازالت صغيـرة وجميلة شعـرهـا أشقـر وعينـاها زرقاوان، تدهشني قدرتهـا السـريعة على لمس القلب البشري، تطرق كل يوم مائة وسيلة مسيلة للفـرح لتحـارب الاكتئـاب في نفـوس القادمين من العالم

الثالث. كنت أرنو إليها تسقي ورود الصف وتنظر من النافذة إلى أوراق الخريف تتساقط على شارع الكمسمول، وبعدها تساقط المطر وأنا أتقن الروسية شيئاً فشيئاً.

كان وجهه قد أشرق وزال توتره كله وسألني:

- هل تصدق؟ لقد كان يفرح قلبي عندما يتذكر شيئاً يحزنه، لم يألف أن يمر وقت طويل بدون حزن، كنت بحاجة لقليل من الاكتئاب لأستمر في الحياة، الابتهاج يفتت الحالة السليمة لأعصابي. ويوماً بعد يوم صرت أعبث بكرة النار تلك التي تحدثتَ عنها، صرت أهزأ بها، وصار يستهويني ذلك، أقول لها لم تعودي تحرقين، وأسرب إلى نفسي مزيداً من الهواجس والذكريات، كان الثلج قد أطبق، وعمت العتمة سيبيريا شهوراً طوالاً، وازداد تسرب الوهم والوساوس القديمة إلى قلبي، كان الحزن القديم ممزوجاً بالغربة يأتي فظيعاً مزهقاً ويشتبك بعنف مع خلايا جسدي، وجدت نفسي مزقاً وأشلاء من جديد، وجهدت أن أبقي رأسي طافياً فوق مستنقع الماضي بلا جدوى، بلا جدوى، لم أكن أتصور أن قبضة أبي ستعتصرني حتى في غربتي، ظل والدي يجثم فوق سريري طوال تلك الليالي المعتمة الباردة التي دهمت سيبيريا وكنت أسمع نشيج أمي إلى تلك الأصقاع.

وقام وأعد شاياً، سائلاً بدون اهتمام:

- هل أنت جديد؟.
- نعم.
- منذ متى؟.
- منذ يومين.

لقد بدت سيطرته على نفسه كاملة، وغدا عادياً، ولم أطق الصبر بعد

ذلك، كانت القصة قد استهوتني، ورغبت في معرفة المزيد، وارتشف قليلاً من الشاي ثم أكمل:

- لقد استغللت عطلة منتصف السنة عندما تلقيت دعوة من صديق مصري لي في هولندا وطرت إلى هنا. كنت عازم على العودة بعد انقضاء العطلة، ولكنني في أمستردام، أحسست مرة أخرى أنني أولد من جديد، وشبح والدي يتوارى ويتبدد، كان صديقي قد وجد لي عملاً فبقيت هناك، لقد أعجبني الهولنديون كثيراً، لقد سحر أعماقي رقي ذلك البلد وحضارته، فعشت سعيداً طيلة شهور ستة، بعدها أخذ العمل الشاق والشعور بأنني في قعر المجتمع يوهن أعصابي، واستيقظت ذات ليلة من جحيم رهيب مروع، كان والدي يزعق بي:
- أنا هو رب العائلة!.. أتيت لأربيكم.. لا لتربوني.

قفررت للحال مغادرة هولندا، لم أكن أريد للعذاب الذي لقيته في سيبيريا أن يتكرر ويزمن، وكنت أعلم أنه أية حدود غير موجودة بين بلجيكا وهولندا بسبب من اتحاد البينولوكس، فركبت القطار في أمستردام ونزلت في بروكسل. هل شارفت على النعاس؟.

- على العكس إنني جد متيقظ.
- هل أنت جائع؟.
- لا.. أرجوك أكمل.
- أيضاً شعرت باليقظة في الشهور الأولى في بروكسل، وعلى الرغم من أنها لم تبد لي مدينة محترمة كما هي حال امستردام كنت سعيداً بتعلم الفرنسية، فقد أحببت هذه اللغة منذ صغري، وكان صاحب المطعم الذي عملت به رقيقاً معي إلى أبعد حد، رغم العنصرية المتفشية في المدينة. وقد أحبني الطباخ وجميع العاملين، ووجدوني أنزع إلى السلام

والكلمات البريئة، وكادت تغرم بي إيطالية تعمل هناك، وكنت قد دعوتها إلى نادي البلياردو مراراً، ورأت مهارتي، كانت تنظر إلي مسحورة فلم تكن تتصور أن عربياً يمكن أن يتفوق هناك على البلجيك، باختصار وجدت نفسي مغموراً بالرقة من كل جانب، فلم أتوقع أبداً أن يزورني والدي هناك، خصوصاً وأنني فررت من أمستردام قبل أن يتسع الجرح الذي خلفته الليلة المرعبة، ولكن ماحدث أنني أنا استدعيته بنفسي قائلاً: لن تجدني.. لن تروعني. وكنت أفعل هذا لأبرهن لنفسي أنني أنا الآن أقوى، شاعراً بالخلاص وبثقة غير معهودة. وذات يوم وجدت الايطالية نصف عارية تعانق صاحب المطعم، فقطعت علاقتي بها، ولم أتأثر كثيراً، فقد ألفت الاباحة الشديدة، ولكن والدي الذي اعتدت إحضاره بين يدي لأشمت به غدا جباراً لايحتمل، ولست أدري بعد مدة كيف أصبحت المدينة كلها تبعث على الغثيان، وتكرر مجيء والدي في أحلامي مرات عدة، فقصدت مدينة تدعى أوستند على شاطىء بحر المانش، بقصد أن أكون قريباً من انكلترا عساني أجد طريقة أصل إلى هناك، ولكن البحر ظل دائماً مانعاً كبيراً. ولم أستطع العثور على عمل، وكادت نقودي تنفذ، فقررت الذهاب إلى سويسرا. لقد كانت أوستند مدينة يعز على المرء مفارقتها، أروع مافيها تلك الحانات المرصوفة على طول شريط البحر. إن أجمل اللحظات التي قضيتها هناك تلك الهنيهات وراء زجاج المقاهي عندما يهطل المطر أنظر إلى البحر وتدمع عيناي، مفكراً: ممن أنا هارب ولماذا وإلى أين؟ من يطاردني وإلى متى؟ ولم يكن يجيبني غير هدير البحر الصاخب وإيقاع الرذاذ على الزجاج.

وأردف:

- أتعلم، لو أن أحداً غيرك لما استمع إلي بجدية، إن الناس هنا مشغولون

ونفوسهم مبرمجة حتى لولم يكونوا يعملون، ولكنك تستمع لأنك جديد، إن رحابة الصدر هذه من هناك، من أرض الأجداد، إنك ما ان تلبث شهرين هنا حتى تغدو مثلهم.

- ألم تراسل أهلك خلال هذه المدة؟.
- لا.. لأن أية كلمة يكتبونها ستجعلني أتطير، ولا زالوا يعتقدون منذ خمسة سنوات أنني في مكان ما في روسيا.
- إذن... لقد قررت السفر إلى سويسرا...
- حسناً كنت أتساءل ماهي هذه سويسرا أغنى بلد في العالم؟ وكيف يمكن أن تكون؟ هل هي الجنة؟ هل سكانها ملائكة؟ انطلقت عائداً إلى بروكسل، ويجب أن تعلم أن بروكسل تحوي طوفاناً من المغاربة تسير نساؤهم بعباءاتهن في الشوارع عاقدين المناديل على رؤوسهن وبكثافة تخال نفسك فيها في الرباط أو الدار البيضاء، منازل محطمة وأخرى رثة مشوهة، مياه عفنة تسيل على الطرقات وأرصفة مطمورة تماماً كما في المدن العربية، خصوصاً وأنت ترى مقاهي المغاربة الغاصة بلاعبي النرد وشاربي الشاي المتعطلين منذ سنين.

كان علي اجتياز الحدود الفرنسية وبعدها السويسرية، وكنت أفكر أن المهربين لابد أنهم موجودون في هذه المقاهي بالذات. واجترأت أن أسأل شاباً بدون مقدمات فقادني إلى اثنين يلعبان النرد وسألني أحدهما:

- وماذا يوجد في الحقيبة؟

فقلت:

- آه لاشيء.. لاتظن أي شيء.. لاشيء أبداً.
- لماذا تريد أن تعبر الحدود؟ ممن أنت هارب؟

ولم أدر ما أجيب، هل أقول له من الغارات التي يقوم بها والدي

علي؟ هل تكون بداية طيبة ان كذبت عليه بطريقة ما؟ ورد الثاني :

- خمسمائة دولار إلى أول محطة قطار بعد الحاجز الفرنسي .

لم تطاوعني نفسي التخلي عن المبلغ ، فركبت القطار واتجهت جنوباً إلى مدينة تدعى «مونس» على الحدود الفرنسية . أودعت حقيبتي في محطة القطار وتجولت في البلدة ، إلى أن عثرت على مغربي يجلس في حانة ، كان في السادسة عشرة من عمره ، حزين اللفتة ، يكاد لايعرف من العربية شيئاً ، وأظهرت له اضطرابي ووجهتي ، تارة بالفرنسية وطوراً بالعربية وأخرى بالإشارات ، وكنت متأكد أنه لم يفهم شيئاً سوى أنني مسلم وعلي الذهاب إلى فرنسا ، فنادى صديقاً بلجيكياً أقلنا بسيارته وعلى الطريق سأله :

- لماذا لايذهب بالقطار؟

فأجاب المغربي :

- أنا نفسي لا أعرف .

ووصلنا إلى محطة القطار ، فقلت انتظراني لحظة ، ولكن ما إن رأياني عائداً وحقيبة في يدي حتى وليا الادبار . فأخرجت من جيبي الخارطة ثم ركبت باصاً واتجهت إلى آخر قرية على الحدود البلجيكية وكان اسمها ڤالنسيا ، ثم سرت طريقاً طويلاً إلى أن وصلت الحاجز الفرنسي .

كانت السيارات التي تصل هناك تتوقف قليلاً وعندما لايظهر أحد لتفتيشها تتابع طريقها ، وكان موظفو الجمارك يجلسون في حجرة من زجاج يتحدثون ، واقتربت أكثر وميزت امرأة تروح وتجيء بينهم ، وكان الكثير يعبرون الحاجز على الدراجات أو مشياً دون أن يلتفت إليهم أحد . وقفت متهيباً كنت أخشى أن يلمح أحد الحقيبة التي في يدي فيستدعيني ، ولكن قاطرة طويلة توقفت أمام الحجرة وأنقذتني ، فعبرت وراءها مضيقاً إدراكي إلى درجة تقتصر على حركات قدمي ، كان أي تفكير في أية احتمالات

سيوقعني في بركة من الذعر ويجعلني أعود أدراجي ، سرت ولثوان كنت مجرد آلة تخطو ، وعندما تحركت الشاحنة أسرعت الخطى ، وما إن أصبحت بعيداً حتى شعرت بسعادة لاتطاق ، ولاتوصف ، يا إلهي إنني في فرنسا رددت في نفسي وأنا أنظر إلى السهوب الرحبة على جانبي الطريق ، إنك لن تتخيل تلك النشوة مهما وصفتها لك ، كنت كأنني خارج من الجحيم إلى الجنة رغم أنني أدرك أنني لن أمضي وقتاً طويلاً هناك ، ترى ماسر ذلك؟

ولم أدر ماأجيبه ، هل لذلك علاقة بوالده؟ أم هو الشعور بالنجاح يحدوه الأمل الواهم بأنه على أرض جديدة تنتظره حياة أخرى بين أناس لايشبهون مامر عليه من قبل . لم أكن أرغب في تحويل الحلم الذي في عينيه إلى مفردات مجردة حاسمة ، فألقيت نظرة من النافذة وقلت :

- الليل قصير ، والفجر يصعد .

- نعم في مثل هذه الأيام تبدأ الليالي البيض في لينينغراد . . انظر ماذا تفعل الريح بالأشجار .

- قل لي ماذا كان حدث لو قبضوا عليك؟

- لم أكن أحمل جوازاً ، ولم يكونوا ليعلموا من أي بلد أنا ، وكانوا سيودعوني ثلاثين يوماً في السجن ثم يطلقوني - لأنني لم أقم بجناية - تحت صفة «ضال» . وعدم وجود بطاقة تعريف في حوزتي كاد يسبب لي مشكلة في فندق ڤالنسيا الفرنسية ، كانت البلدة مقسومة قسمين إحداهما في بلجيكا والأخرى في فرنسا ، وكان الظلام قد حل ولم يكن هناك أي قطار مغادر إلى باريس ، وأصر موظف الفندق على بطاقة تعريف ، كانت ذقني قد غدت طويلة والأوروبيون لايطيقون ذلك فأريته اسمي مدوناً على تذكرة القطار إلى باريس وفي الصباح وصلت إلى المحطة قبل الموعد المحدد ، وكانت نفسي مجهدة تعبة من التنقل المضني ومع ذلك

كانت تهتف «إلى باريس . . إلى باريس» وكنت أطير من الفرح .

وصلت عند الثانية عشر ظهراً، وأعطيت نفسي ساعتين لكي أشاهد برج إيفل ثم أتابع الطريق قبل أن تنفذ النقود إلى سويسرا . إنني لأذكر مترو باريس، كان سيئاً جداً إذا ماقورن بمترو موسكو الذي تبدو محطاته أشبه بمتاحف من التماثيل واللوحات والنقوش وبما أنك لن تصغي إذا ما وصفت لك كل شيء أقول إنني صعدت إلى الطابق الأول من برج إيفل ثم الطابق الثاني حيث أطللت على باريس كلها وعدت أدراجي إلى محطة القطار، ابتعت خارطة فرنسا فوجدت أن علي الذهاب إلى مدينة بلفورت ومنها إلى قرية ديل حيث الحدود السويسرية .

بت تلك الليلة في بلفورت، وفي الصباح وجدت جزائرياً في شارع، وقال لي أن ديل بلدة خطيرة يجوبها حرس الحدود بشكل متواصل، كما أن الشرطة السويسرية تفتش كل السيارات التي تعبر الحاجز ويجوبون البساتين مزودين بكلاب وأجهزة لاسلكي متطورة، فأوقع قلبي بين قدمي . ومع ذلك كنت بعد ساعة هناك، أخفيت الحقيبة في غابة كثيفة الشجر واتجهت فوراً إلى الحاجز، حيث لمحت شرطيين قد أوقفا سيارة وأصعدا إلى داخلها كلباً راح يتشمم المقاعد ثم العجلات، فابتعدت وأخذت أبحث عن منافذ أخرى بين البيوت على طرفي الحاجز فعثرت بعد خمس ساعات على اثنين أحدهما طريق ترابي وآخر يمر في دغل . فعدت واشتريت طعاماً ثم قصدت الغابة وبقيت وحدي قرب الحقيبة حتى هبط الليل . أتساءل لماذا أنا وحيد كالوحش؟ لماذا تعذبني الدنيا على هذا النحو؟ وأين الخلاص وكيف ومتى؟ ولم يكن يجيبني سوى الرياح وحفيف الشجر، وفي الواحدة نهضت لاستكشف الطريق، فوجدت أنني تائه قد أضعت المنفذ تماماً، فبدأت أجوب المكان ذهاباً وإياباً، كانت البلدة قد غدت غامضة مظلمة، قد

تغيرت تماماً حتى لأكاد أعرفها، وارتاب بي أناس يسهرون على شرفة، وعبرتُ مرتين أمام رجل داخل سيارة متوقفة، وشعرت بالضياع والتعب واليأس، ومرت سيارة الشرطة مرتين من أمامي، وفجأة انكشف الممر من بعيد، فسلكته في الظلال محاذراً، مصغياً إلى كل حركة تجرح الصمت، ثم انعطفت إلى الدغل وسرت في ظلام دامس، أتتبع ضوءاً واهناً لكنيسة بعيدة، وشيئاً فشيئاً تبدت لي أنوار قرية كاملة تلف الكنيسة، ثم وجدت نفسي في مقبرة أفضت إلى الطريق العام، وكان علي اجتيازه سريعاً، وكنت أتساءل أتراني الآن في سويسرا، أم لازلت أطوف في ديل؟ واجتزت طريقاً طويلاً معتماً بدون أنوار عبرته فجأة سيارة جعلت الدم يتجلد في جسدي، أفضى بي إلى فندق على حافة طريق مضاء عريض، وعدت أتساءل أتراني في سويسرا أم في فرنسا، كانت أسماء الشوارع مدونة بالفرنسية كما من المفروض أن تكون في كلا البلدين، وعثرت على صندوق للقمامة قرب كشك، وأخذت أقلب محتوياته فوجدت علبة كتب عليها «صنع في سويسرا» . هل يمكن أن تتصور كيف أصبحت فجأة مجنوناً؟ من جديد أحسست أن الحياة الحقيقية قد ابتدأت الآن، من جديد غمرني الحبور نفسه الذي شعرت به أثناء مغادرتي الأراضي البلجيكية، كانت الريح نقية نقية لم استنشق مثلها من قبل، تأتي من وراء التلال كأنها رياح الأبدية تهب على جسدي وتعدني بالخلود، ترى ماذا تظن؟ ما السر في ذلك؟

من جديد السؤال نفسه، تراه نسي أن يكون قد طرقه من قبل وقلت :

- ولكن ياصديقي أنت تعبر الحدود بدون تأشيرات وبراحة ضمير.
- ولِمَ التأشيرات؟ أنا أعلم أن أرضنا هذه لمن وجدوا فوقها، متى قسمت على هذا النحو؟ لم لم يأخذ أحد رأيي؟ .

وقلت وابتسامة ترتسم على شفتي :

- ومن أنت اذن حتى يأخذوا مشورتك؟
- حسناً إذا لم يأخذوا لي أي اعتبار، فكيف سأفعل أنا ذلك؟
- افرض دورية عبرت وطلبت منك أوراقك! .
- سأجيبهم لم الأوراق ألا ابدو انساناً؟

وأغرقت في الضحك وتابع :

- ولكنك لاتعير سؤ الي اهتماماً رغم أنه جدي بما يكفي . عندما عدت إلى هولندا سلكت الطريق نفسه الذي وصفته لك، وكنت كلما عبرت حاجزاً أشعر بالغبطة لتخلصي من البلد الذي سبق أن فرحت بالوصول إليه . . لقد كانت سويسرا أحط بلد زرته، تذكرت فيه مراراً سماحة الهولنديين ودمثهم ورقي الروح وحريتها في حركاتهم، بحيث لو سُئلت يوماً أي أسوأ بلد زرته في حياتك؟ لقلت سويسرا، أي أخس شعب رأيته؟ السويسريون، أي أفضل بلد في أوروبا؟ هولندا، أي أعظم شعب في أوروبا؟ الهولنديون، لقد كانت العنصرية تتبعني عند كل خطوة وفي كل موقف، عنصرية مستحكمة ليس لها مثيل في أوروبا كلها، مزدوجة فطرية ممزوجة بتعالي من هم أغنى الأمم على الاطلاق . . كم كنت غبياً ذلك اليوم عندما عبرت الحدود وكنت فرحاً على ذاك النحو.
- هل يمكن القول عن قومية كاملة إنها سيئة أو إنها أردأ من قومية أخرى؟
- لا . . ولكن في حوزتهم من النقود أكثر بكثير مما يستحقون، ألا يمكننا القول ان ذلك الرجل أفسدته النقود؟
- نعم بالنسبة لرجل واحد فقط .
- صدقني انهم خسيسون بأجمعهم، إن النقود بدلاً من أن تجعلهم أحراراً ملتفتين لقضايا أسمى جعلتهم عبيداً لها، بدلاً أن تكون هي في خدمتهم أصبحوا هم الخدم .

- وعدت فوراً؟
- بقيت ثلاثة أعوام، نمت في اليوم الأول على شاطىء البحيرة في جنيف، وكانت الرياح تلطمني طوال الليل، وهدير الموج يمتزج مع أحلامي، كنت سعيداً متكوراً تحت الأشجار، تزقزق فوقي طيور الجنة . وقد تمشيت طيلة اليوم على الشاطىء، وكان العرب الأثرياء كثيرين بحيث لايكاد يوجد هناك غير السعوديين وأهل الخليج، وفي بهو الهلتون المقابل للبحيرة كان يجلس مصريون ذوي كروش ضخمة، وحركات رصينة، لايفارق السيجار أفواههم، ينتقون أكثر العبارات سطحية ويلفظونها بعناية ونعومة، وعند المغيب كان مشهد البحيرة قد غدا فاتناً، وكانت أضواء الأراجيح والألعاب الكهربائية تسبح على المياه، وكان العرب والبائعون والسائحون يتزايدون، وشعرت ببهجة عميقة كنت أسير بينهم وحيداً صامتاً، لم أكن غنياً، لم أكن أرغب في أن أكلمهم، ولكنني كنت سعيداً دون أن أبغي امتلاك أي شيء، كنت أنظر إلى بريق المخازن والسفن والسيارات الفاخرة وأقول لنفسي أليست كأنها لي مادمت رأيتها متذكراً كلمات فيلسوف لم أعد أذكر اسمه : يجب أن لاتطمح إلى امتلاك الأشياء بل تكتفي بانعكاس أشباحها عليك*. وحين انتصف الليل وأقفر الشاطىء تمددت بعيداً على العشب، وبرغم الريح الهابة من الموج استغرقت في نوم عميق، فلم أكن في الليلة الفائتة قد نمت لحظة واحدة، ولم يكن قد بقي في جيبي قرشاً واحداً .

وعندما استيقظت شعرت بالجوع يعضني كما لم يحدث في يوم من الأيام، ورأيت على الرصيف أمامي مطعما يونانيا اسمه «زوربا»، وبالمناسبة

---

* نيتشه

إنـك أينمـا ذهبت في أوروبـا وبحثت عن مطعم يوناني تجد له هذا الاسم. كنت لاأعرف أحداً في المدينة مفلساً مضطرباً أشعر بالخور، فجلست عند البـاب حتى حضـر صاحبـه، فوقعت عنـد قدميه فنهرني فقلت «سيدي إنني أتضـور جوعـاً» وشـرحت له قصتي بأكملهـا فنظـر إلي مليـاً ثم قال انني زوربـا.. زوربـا آخـر.. من نوع جديد، ولم أفهم شيئاً وقال «حسناً إنني بحـاجـة إليـك، ولكن ليس للعمـل في المطعم»، وأبقـاني أسبوعاً عنده لم يكن يذكـر لي نوع المهمـة التي يريـدني لأجلهـا، كنت آكـل وأنـام في المطعم، أتنزه في المدينة، وأذهب إلى مقهى البلياردو، كنت هادئاً هادئاً، كان ذلك الأسبوع أصفى أيام حياتي. وفي اليوم الثامن أحضرني وقال إن له صديقـاً تركيـاً في اسبـانيـا وعلي بعـد أن أخـذت قسطي من الراحة أن أقوم بتهـريبـه إلى سويسـرا مقـابـل مبلغ من المـال، لأنهم رفضوا اعطاءه تأشيرة دخـول، وفكـرت كان العـرض مغـرٍ، وكـان علي اجتيـاز الحـدود الفـرنسية والاسبـانيـة ثم العودة مقابل مبلغ كبير، وقمت بالمهمة. وبعد مدة أوكل لي التـركي جلب أخيـه من النمسـا، فاحضرته أيضا، الذي عرفني بدوره على أناس كثيرين يريدون الحضور من بقاع مختلفة في أوروبا ومع ذلك فإن كل هذا لم يدرْ علي كثيراً إلا عندما بدأت أجلب الناس من أوروبا الشرقية إلى سويسرا.

- لقد أصبحت مهرباً حقيقياً!.
- أجـل، وهـذا ما أتلف أعصـابي جداً، لقـد كانـوا ثلاثة أعوام من الرعب المتـواصـل، كنت دائماً أتألم، دائماً في خطر، ودائماً أسير قرب الهاوية لقـد جائتني أيـام كنت عنـدمـا أفتح عيني في الصباح أتساءل في أي بلد أنـا؟ وأتلفت حولي حتى أدرك في أي بقعـة ذرتني الـريـاح، كنت مركبـاً شريداً بلا مرفأ، بلا قمر، تهب عليه رياح ظالمة مسعورة، وذات يوم، في

زوريـخ، قصـدت مقهى البلياردو فأذهلني شاب في العشرين من عمره، يلعب في خفة غريبة، تخطف كراته الأبصار، فشعرت بالمحبة نحوه وأنا أنظر إلى طيف العبقرية على وجهه، وقلت عندما لم يبق أحد من منافسيه:

- هل تلعب معي؟

فهز رأسه بسرعة وتعالي:

- لا.
- ثق أنني ألعب جيداً.
- هذا غير مهم؟

وتسـاءلت عينـاي «ماالذي يهم اذن؟» ويبدو أنه فهم ذلك، فنظر إلى شعري الأسود كأنه يجيب بأنني وضيع، درجة ثانية وكسر لي قلبي؟

أويت ذلـك اليـوم إلى الفـراش باكراً حزيناً، وخلت فجأة أنني عدت ذلك الطفل الذي اعتاد أن ينام وأمه تئن في الغرفة المجاورة، وتجمد قلبي من الـرعب، أحسست أن يداً حديـديـة تقبض عليـه وتعتصـر، وتعتصـر، وتعتصر، فقفزت صارخاً لقد جاء.. لقد جاء، وفجأة سمعت أنيناً رهيباً يشبه أصوات قط مخيف يختنق في بركة مهلكة، فصرخت إنها أمي.. إنها أمي، وكان يصل إلى أذني صرير حشرات غريبة يزيد من ذعري، ومر رجل تحت النـافـذة يغني ويزعق ويرتل بصورة مجنونة، وكانت أصابعه تمر وراء الزجاج وتختفي، فصـرخت حتى أيقظت الحي كله، وكانت تلك المرة الأولى التي يأتيني فيهـا كابوس الرعب ذاك، استيقظت مذعوراً ورأيت القمر البارد بعيداً يضيء طرف السماء الميتة، فأضأت النور لأبعد الأشباح عندما سمعت طرقاً على البـاب، فقلت انني بخيـر ولم أفتـح، ولكنني ما إن استلقيت من جديد حتى عاودتني النـوبـات، فتناولت طبقاً من الحساء، ورتبت الغرفة، وأزحت

الغبار عن النافذة وظللت مستيقظاً حتى الصباح أرتجف.

لقد صفر القطار اذن، وكان علي الرحيل مرة أخرى، وألقيت نظرة من نافذته إلى السهوب السويسرية الرحبة، وإلى الطيور التي ترف بجانب الأبقار، وقلت لقد ضاعت حياتي على هذا النحو، من قطار إلى قطار، ومن طائرة إلى طائرة، ولكنني لم أمتط أبداً حماراً، ولم أسر عبر الحقول الندية. لقد هدني الشوق إلى قرية هادئة، إلى حياة بسيطة، وحقل، لقد حننت ذلك اليوم إلى مكان أقول فيه هذا بيتي وهذه بقرتي، دون أن أنتظر من القدر شيئاً.

أتعلم إن الطبيعة هي الوحيدة التي يعز على المرء مفارقتها في سويسرا، أينما سار بك القطار تجد الجبال والضباب والوديان والبحيرات والأنهار والقلاع يعبر بك الأنفاق وترى من نوافذه تعرجات الألب والهضاب والثلوج بحيث وأنت في ذلك الدفء الذي يشيع من مقصوراته لا يمكنك إلا أن تردد: ياليتني لا أصل.

- لقد عدت إلى هولندا؟
- أجل، إن الهولنديين هم النموذج الذي يأمل الأجنبي أن يجد عليه أوروبا.
- الذي سمعته أن العنصرية موجودة أيضاً هنا.
- أنا لاأسميها عنصرية بقدر ما هي إهمال بسبب اختلاف ميولنا، الذي بدوره سببه كوننا أقل حضرية، أنت ببلدك ستنأى عن أي شخص تشعر أنه لايوجد أي شيء مشترك بينك وبينه.

كان الصباح يشرق على المزارع والروابي التي بدت كأطياف عند بزوغ الفجر، وامتلأت الحجرة بالنور، واستطعت تبين بوضوح لوحة الشيخ المسافر، وقال:

- إن من أكثر الأمور التي تحزن النفس أن تجد من رغبت طويلاً بلقائه قد نسي كل شيء، إن الأكثر من هذا ألماً أن تجد روحك قد تقدمت ونضجت بينما بقي هو فجاً كما كان. هل يمكنكما أن تلتقيا؟ هكذا وجدت أصدقائي حينما عدت إلى امستردام، كانوا ضائعين في العمل من الصباح حتى المساء، حيث يذهب بعضهم إلى حانة فيضيع أكثر في شرب الجعة أو لعب النرد، لم يكن أحد منهم يفكر أو يحلم أو يحب. جلست قربهم في تلك الحانات طويلاً، لم يكن ينقصهم سوى شيء واحد: أن يعلق كل منهم على جبينه يافطة يكتب عليها أنه إنسان. لقد اقتربت من صديقي الذي أرسل لي الدعوة إلى سيبيريا حالما وصلت وكان يلعب الورق، وأغمضت له عينيه، فأدار وجهه إلي وقال «أهلاً.. أنت محمد اللبناني.. اجلس» وأشار إلى كرسي بجانبه ببرود، وتابع إلقاء الورق. ثم قال دون أن يلتفت إلي «كيف كنت؟» ولم أجب بشيء، كان يتكلم بنفس الطريقة التي يرمي فيها الورق، وكان أمامه رجل أشد أتوماتيكية منه، وتابع كأنه سمع من مكان ما إجابتي «وكيف أحوالك الآن؟»، ولم ينظر إلي أيضاً، لقد ضاع العالم، جلست أنتظره حتى ينتهي، ولكنني كنت أشعر بغرابة أنه يتحرك ولكنه غير موجود، لم يكن سعيداً بلعبه أو مستغرقاً أو محباً، كان فقط يلعب والله وحده يعلم أنه لم يكن أشبه سوى بسحابة من بخار، وجمع الورق عن المنضدة ثم أعاد توزيعه وهو يقول «هه.. أراك لاتجيب». حسناً قل لي بماذا أجيبه؟ للأسف أن تجد أخوة لك على الأرض فتأتي لتكلمهم فتجد أنهم في واد وأنت في واد، كنت مقبلاً على أن أصف له رحلتي وعذابي، كنت متشوق إلى أن يشرح كل منا للآخر آماله وأحزانه فوجدته يكاد يكون بلا روح، حزيناً متبلداً صارماً عديم الأشواق، يحتاج إلى جهد كبير

لاستمالته إلى موضوع إنساني، وقد فاجأني بشعره المجدول الطويل، وبزوال تلك المسحة المحببة التي كانت تميزه كمصري حين تعرفت عليه لأول مرة حيث كانت تلهب مشاعره أية كلمة، أي رأي، قيل عنه أو قيل له، كان ببساطة طير المحبة يرفرف فوق رأسه، أما الآن فلم يغدو هولندياً بأية حال ولم يعد مصرياً، كان مجهولاً، فتركته ومضيت، وعدت كما ترى وحيداً إلا من نوبات الذعر التي عادت تنتابني كل شهر، وإنني الآن لا أكاد أستطيع أن أقول أنني أفضل منه، غدوت بليداً ضجراً أنفق النقود التي كنت جمعتها بلا أمل، بلا عمل، إنك بمجيئك إلى هنا لاتغير قدرك البائس وإنما تبدله بعذاب من نوع جديد.

- إنك تجعلني أشعر باليأس قبل أن أبدأ بعمل شيء.
- ولكنني أقول الحقيقة، وكلامي منطقي، لقد كنت أظن قبل أن آتي إلى هنا أننا نختلف عنهم في عاداتنا وأفكارنا ومجتمعنا، وأننا نحن كيان وهم كيان آخر، ولكن الذي اكتشفته أنه ليس لنا أي كيان، وأننا في وضع سلبي جداً سبق أن تجاوزوه، يبعث بهم على الغثيان لدرجة أنهم لايرغبون في تذكره، نحن لانختلف عنهم اختلاف الأنداد، نحن في الحضيض، نحن منسيون، وأكثر مايشعرك بالبؤس عندما تحس أنهم فعلاً أفضل منك، وأن الحضارة مترامية هنا وهناك وليس باستطاعتك اللحاق بأحد إذا لم تولد من جديد كما أسلفت لك. إنك تظل جرذ في مطعم جل مايستطيع فعله قضم الفتات ليحافظ على البقاء. وليس لك حجة سوى أنه ليس ذنبك أنك مولود في العالم الثالث، وهذه أيضاً ليست إلا لتبقيها لنفسك لأن أحداً لن يستمع إليك.
- ولكن يوجد أيضاً أطباء عرب ومهندسون مشهورون.
- هؤلاء أصلاً من العائلات العربية الثرية، التي أرسلت أبناءها للدراسة

هنا، ثم تزوجوا واستوطنوا، وهذه البحبوحة التي هم فيها معتادون عليها، ومع ذلك هم في عزلة رغم أن زوجاتهم أوروبيات. إن كلمة عربي لاتعني هنا أكثر من سارق أو ارهابي أو بائع مخدرات وفي أفضل الأحوال عامل تنظيفات في بالوعة.

- هل كان الوضع أكثر انسانية في روسيا؟
- كان الناس مختلفين هناك إلى حد ما بسبب التربية البروليتارية، والأجنبي مرغوب به لأنه أكثر نقوداً، ولكن هل تظن الروس ليسوا عنصريين؟ انهم يبدون كذلك لأنهم فقراء، بلا أنياب، ولكنهم أكثر عنصرية من الألمان لأنهم أقل رقياً، وإنني لأذكر حادثة شنيعة لايمكن أن تحدث في أوروبا الغربية أبداً، وكنا في رحلة على ضفاف بحيرة البايكال، وكانت هناك فتاة من موسكو مع صديق لها من الاكفادور، عندما سمعتها تهمس في اذن شقيقتها أنها بحاجة إلى نقوده وليس إليه، وكان الشاب طيباً وساذجاً وقد أبت وهي تتلوى من الضحك مع شقيقتها إلا أن تلتقط لها صورة قرب ضفة البحيرة وهي تضع قدمها على رقبة الشاب.

وتساءلت:

- هل الألمان الأكثر عنصرية في أوروبا؟
- حسناً إن عنصرية الألمان تختلف عن عنصرية الفرنسيين، إن الفرنسي يعطيك فرصة حتى تتكلم ثم يفر منك، أما الألماني، فإنه ينفر بمجرد أن يرى لون بشرتك. ذات يوم جلبت زنجياً من ميونخ إلى سويسرا، وفي القطار وكنا لانزال في ألمانيا قاصدين القرية الأخيرة، قمت بفتح النافذة لأن الجو كان خانقاً. وكنت أجلس على مقعد آخر غير الذي يجلس عليه الزنجي، ورغم أن الألماني قد رأى أنني من فتحت النافذة، هب صارخاً في وجه الزنجي «لازلنا في شهر نيسان» وأغلق الزجاج بعنف، وصمت

الشـاب الأسـود تماماً، وكان في السادسة عشر حتى خلت أن سكتة قلبية ستصيبه، فأخذت أطمئنه بالانكليزية بأنه لن يرى ألمانيا بعد الآن، وبعد قليـل توقف القطـار في احدى المحطات ودخل ألماني عريض المنكبين ونظر إلى كلينا ولم يكن هناك مقعد فارغ، وكان الزنجي أقرب إليه ولكنه تركه وجلس قربي، وأقسم لك لو أنه وجد يوغسلافياً على مبعدة خمسين متراً لتركنا نحن الاثنان وجلس هناك. ولكن مع ذلك عندما تطلب من أي أوروبي شيئـاً أو تتكلم معـه يتكشف حالاً معدنه الأصيل ويجيبك بلطف وبقلب أبيض وفقط، ثم بعد ذلك يتركك عشرين عاماً خارج دائرة المجتمع.

ودخلت أشعة الشمس من النافذة رقيقة ساحرة، فقلت وأنا أقف:

- ولكن ماذا تفعل الآن بأيامك؟ إن الفراغ مؤلم.
- أذهب إلى مقهى البحـارة كل يوم، هنـاك عنـد المـرفأ، وأتجـول بين السفن، عساني أجد بحاراً يقوم بتهريبي إلى أمريكا.
- ولكن لماذا لاتتزوج وتبقى هنا وتستقر؟

فاقترب مني ثم همس في أذني:

- لأنني أريد أن أفر.
- ممن؟
- من أبي.

لم أتمكن من النـوم ثلاث ساعـات حتى أيقظني طرق على البـاب، كان يوم الأحد، ولا شيء يمكن فعله. وقد ظهرت دلائل الحر منذ الصباح، سمـاء شديـدة الـزرقـة، هواء ساكن، أشعـة لامعـة مترامية أخذَتْ تسخن وتصلي القرية قيظاً لايطاق. فنهضت وفتحت الباب وإذ الجزائري الضاري يحدق في ملامحي:

- أنت بخيـر؟.. حسنـاً، لابأس.. جئت لأطمئن عليـك.. هل سار كل شيء على مايرام؟
- أجل.
- إلى اللقاء إذن..
- إلى أين؟ هل تسرق يوم الأحد؟
- إلى شارع سدوم وعمورة.
- سدوم وعمورة!؟
- آه... نحن نسميه هكذا في هذا النزل.
- حسناً ادخل.. تفضل.

فقال ضاحكاً وهو يجلس:

- شارع الغرف الزجاجية الحمراء.. ألم تزره بعد؟

- أرأيت، المال الذي يجمع في الحرام لاينفق على الحلال، والسبب أن المرء يصبح وغداً أثناء تحصيله.

وظهر على وجهه مسحة غامضة فظيعة، فلم أعرف إذا كان مجنوناً أم فناناً، بدا لي كأنه يقف منذ سنين طويلة على الشعاع الواهن بين الاثنين:

- انها مسألة قدر. . . الأمر أكثر عمقاً مما ذكرت.
- كيف يمكن أنت المتعلم أن تطأ هذا الطريق؟

فقال بنبرة حزينة:

- لقد بدأ الأمر في الجزائر، حين كنت أعمل في بنك وأصرف على أخواتي الأربعة، وكنت أدرس بنفس الوقت وكنت بطلاً للجامعة في الشطرنج أيضاً، وكنت أتساءل دائماً عن سبب فقري رغم مهاراتي وتعدد أعماقي هاتفاً قائلاً: ماأهمية أنني أذكى وأكثر بأساً ممن حولي؟ وجاء يوم فقدت العمل وأخذ يتهدد أخواتي العار، في الوقت الذي تخرج فيه رفاقي، وشقوا طريقهم، فقدمت إلى هنا، ولم أجد عملاً أيضاً، وتعرفت على أغنياء عرب كثيرين، كانوا قمة في الغباء والجهل، فعاد السؤال يلح علي وأنا أسير في الشوارع: ما أهمية إذن أنني أكثر مهارة وحنكة من هؤلاء الناس؟ كيف هم يملكون كل شيء وأنا لا أملك شيء؟ وذات يوم، في مخزن للأجهزة الكهربائية، لمحت لبنانياً يحاول سرقة آلة تصوير، وما إن رأى ملامحي العربية حتى أمرني بثقة أن أقف في وجه البائع ففعلت، وقام باختطافها وخرج، وهو الذي علمني أن أسرق كل يوم وبشكل دائم بحيث لايتجاوز ماسرقته ألف دولار وبحيث لا أضع أية مسروقات في غرفتي، وصرنا نذهب معاً إلى القرى والضواحي الصغيرة التي تنعم بالسلام، حيث لايتوقع البائع أن يدخل عليه لصوص. وقد تركت اللبناني لأنه كان مادياً لايفكر سوى بالنقود وتعرفت على خضر. ثم

بعد ذلك أصبحت أحس بوطأة أن يكون المرء سارقاً، بدالي الأمر عملاً جسدياً حقيقياً، بالاضافة إلى الانهاك الروحي المتواصل، أصبحت أحس بثقل ما أنا مقدم عليه: ولكنني كنت أشعر أصلاً بالفناء من الماضي البخيل، وبغموض المستقبل، فقلت لنفسي اختطف قليلاً من العظام قبل أن تفنى، فقررت المضي بمخطط مؤقت أعود في نهايته إلى الجزائر بعد تحصيل مبلغ ما.

- ألم تشعر بالنذالة؟ أو أنك آثم مثلاً؟
- لم يكن أن تسرق شيئاً أوتبيع مخدرات في مثل هذا النزل المليء بالأجانب مايشين، كان الجميع ينظرون إلي بإعجاب وينتظرون رجوعي حتى أبيعهم السلع بثلث أثمانها.
- أقصد أنت. . بينك وبين نفسك وكمثقف ألم تشعر بالعار لتلك الأعمال.
- أجل كان ينتابني شعور مخلص بأنني أخسر روحي الأصيلة تدريجياً، وأن فلورونا أكسبه يقابله ضياع بنفس المقدار في تلك الروح. كان النجاح في المخاتلة باختطاف أي شيء هو العزاء الوحيد، كان كذلك الشعور الذي أصل إليه عندما أقود دور الشطرنج إلى كش مات.
- ولم قبلت اذن بخسارة نفسك؟
- كنت مدفوعاً بطاقة هائلة لكي أقوم بهذا العمل بالذات، إنني لا أفهم نفسي أحياناً كنت كأنني مرغم أومسير، وكان أخواتي جائعات، ومن ناحية ثانية وإنني لأحلف لك بالله أن هذا الشعور بفقدان الذات كان يأتيني أيضاً أثناء العمل المبرح، إنني لم أعتد، كنت موظفاً في بنك، وغدوت معدماً، هذا العالم ليس عالماً عاطفياً حتى تسألني مثل هذه الأسئلة، إذ لازالت تحكمه الطبيعة الرعناء التي أنجبتنا. انظر إنني أفكر

على هذا النحـو: إنني ابن لهـذه الطبيعـة، اذن على هذه الطبيعـة أن تطعمني، فأين ميـراثي من ثمـارهـا؟ إنـك إذ تنظـر تجـد أبنـاء الطبيعـة الآخرون قد استولوا على كل شيء، وأنا أين حصتي؟ إن أمي الطبيعة لن ترضى أن أموت جوعاً لأن لي نصيباً منها مثل الآخرين، فأين هو؟

- صحيح يوجد قدر كبير من قلة العدالة في هذا العالم، ولكن حتى وصلنا إلى هذا النـذر اليسيـر من الانسـانيـة مضى دهـور، ولايحق لك أن تعـود وحشاً ضارياً لمجرد كونك فقير.

- حسناً بماذا تنصحني اذن؟ هل انتحر؟

لم أكن أملك أيـة نصـائـح، لم يكن لدي سوى الكـلام، وهـا قد أوصلني إلى طريق مسدود، فقلت وأنا غير مقتنع:

- استخدم ذكاءك في ايجاد عمل.

- هل تظن أنني إذا عملت كالبغال لن أحتقر نفسي أكثر، على العكس إن هذا هو أكثـر الطـرق التي تلائم ذكـائي وكفـاءاتي وخفتي. ثم افتـرض - مادمنـا نتكلم بشكـل عام - أنني وجـدت عمـلاً وصبـرت عليـه ماذا عن المعدمين الآخرين سيظهر بينهم لصوص ومجرمون ولا مفر من ذلك.

وكم من المؤسف والخطـر أن يكـون المثقفون هم اللصوص، وقلت وأنا غير مقتنع أيضاً:

- أنت مسؤول عن خلاصك فقط.

- حسنـاً إذا كان كذلـك فإنني ما إن أجمـع المبلغ المطلوب وارجـع إلى الجزائر حتى أعود إلى طبيعتي القديمة.

- هل أنت متأكد؟

- نعم متأكـد، إنني أسـرق براحـة ضميـر هنـا لشعـوري من أن الطبيعة قد نُهبت من قبل هؤلاء الأوروبيين المترفين، وهـذا هو سبب الشعور العام

في هذا النزل أنه كونك لصاً لايؤثر على سمعتك.

- قد تأتي ظروف في الجـزائـر تجعلك تنـدفـع إلى مغـامـرة حمقـاء حيث لارحمة هناك.

فصاح بصوت مجروح:

- هل أنتحر اذن؟ إنه قدري أن أموت رعباً أو جوعاً.

فأحسست بوخز الضمير، وأردت أن أنعطف به إلى حديث أكثر تسلية فقلت:

- كم تتقاضى المرأة في شارع سدوم وعمورة؟

فعاد ماء وجهه إليه وكأنه اجتاز امتحاناً عسيراً وقال:

- ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو مائـة، الـزنجيـة ثلاثـون، الهـولندية مئة، مقابل عشرين دقيقة.

كانت النـافـذة تزفـر الحـر، والظهيرة تقترب، ومرت ببالي المرأة ذات العينين السوداوين، فقلت:

- هل بينهن عربيات؟

فأضاء وجهه وقد طاب له الحديث:

- ولكن لايقفن عاريـات في الغـرف الـزجـاجية، تجدهن في نهاية الشارع يلتقطن الزبائن، ويأخذنهم إلى مبغى مجاور يقع في حي المغاربة.

- من أين؟

- من المغرب ومن الجزائر، مرة واحدة رأيت امرأة مصرية. ولكنهن قلائل، بينهن مغـربيـة رشيقـة القـوام، تضع نظارة سوداء وتقف عند حافة القناة، إنني أذهب إليها دائماً، إنها أخت تلك الفتاة التي تنظف النزل؟

آه.. اللعنة على الذاكرة... هاقد وضح الآن أين رأيت العيون السود تلك وأردف:

- ولكن إذا أردت معرفة الجنس على حقيقته عليك بامرأة برازيلية، لست أدري.. إنهن يشعرن كأن واجبهن أن يقمن بكل مايستطعن لإسعادك، خصوصاً إذا كانت قد قدمت منذ فترة قصيرة إلى هولندا، إبحث دائماً عن غانية حديثة العهد.

- والايدز؟

- ومن تقبل أن تنام معك بدون واقي؟ لاتفكر بهذا أنت في أوروبا المتحضرة، حسناً قل لي في المساء مع من ستنام في المرة الأولى.

- وأنت من ضاجعت أول مرة؟

وأشرق وجهه من جديد:

- آه.. كانت سوداء.. كيف أشرح لك؟.. كانت الليلة الأولى لي في أمستردام، ولا أعرف كيف اخترت زنجية؟ كيف تركت كل هؤلاء الهولنديات الشقراوات، والاسبانيات والفرنسيات، وانتقيت فتاة سوداء؟ ودخلنا الحجرة، وأطفأتْ النور، فلم أعد أرى منها سوى أسنانها، كان كل شيء مظلماً حولي، كنت أحس كيف تداعبني، وألمس جسدها وأعضاءها، وكنت منتشياً لتقبيلها ومداعبتها، ولكنني لم أكن أدري من يفعل هذا، من يمتزج بي، كان ثمة أسنان بيضاء تبدو حيناً ثم تختفي. وكانت هي تتراءى لي كالخيال بين حين وآخر، كشبح يتماوج مع ظلال الستائر ثم يتبدد، وعندما أضاءت النور، نظرت إلي وأنا عارٍ ولم تطردني، كما أصبح يحدث معي في المرات التالية عندما فقدت وداعتي، حيث ما إن تنتهي العشرون دقيقة حتى أجد نفسي| وراء الباب وقد نقصت نقودي ثلاثين فلورونا. أقول لم تطردني بل أخذت تحدثني بالفرنسية وكانت من زائير، وكان أول سؤال ألقته علي:

- هل مارست العادة السرية طويلاً؟

- نعم، كيف عرفت؟

- لأنه كانت تثيرك يدي أكثر من أية أشياء أخرى.

فقلت لها مازحاً:

- أية أشياء تعنين؟

فضحكت:

- هل هذه المرة الأولى التي تمارس فيها الجنس؟

فقلت بخجل:

- نعم.

فضحكت بحب وأخذت تلاطفني وهي تنزع الواقي، ثم ألقته وعادت وجلست قربي كأنها تريد أن تبدأ معي حديثاً، لقد شاهدت الحب في عيني، لقد رأتني مختلفاً نادراً، أتعلم دائماً كان يخيل إلي أنني أحببتها، صحيح أنني تمكنت من الوصول إلى متعة جنسية أكبر مع أخريات، إلا أنه لم يجمعنا جو من الود كما حدث مع هذه، كانت تلك الليلة الأولى والأخيرة الدافئة في حياتي.

- هل بقيت معها طيلة الليل بثلاثين فلورونا؟

- نعم وقد أعادتهم لي في الصباح، ولم أرها بعد ذلك أبداً، لقد عادت إلى زائير كما كانت تحدثت إلي، بأنها أصبحت تملك الآن ثمن منزل، وتتمنى أن تجد زوجاً طيباً مثلي لتتزوجه، كنت ألمح في عينيها طوال الليل كأنها تقول «تزوجني أرجوك»، وقد أشفقت عليها، ولكن الأمر أنني لا أستطيع أن أتزوج كل عاهرات المدينة، لقد جلبَتْ زجاجة شمپانيا وقالت سوف أحتفل هذه الليلة بأنه لايزال هناك طيبون على هذه الأرض، وبوداع مدينة الشر القذرة هذه؟

- كم عاشت في أمستردام؟

- قالت ثلاث سنين، وكانت تضاجع في اليوم عشرين رجلاً، وقد تبين لي أنها ضاجعت خلال تلك المدة عشرين ألف رجل.
- ولم يشعرك ذلك بالاشمئزاز؟ أو بكثير من التقزز؟
- ولِمَ يشعرني؟ أليست روح؟ أليست إنساناً يتعذب ويناضل على طريقته؟

وقلت في نفسي هذا زوربا آخر جديد:

- لهذا قد أحببتك؟
- وأنا أقول لك أنني أحببتها، ولا أشعر بالعار أبداً من هذا، إن بيننا علاقة روحية فقط، وسوف تذكر هذا إلى آخر العمر.
- ولكنك نمت معها.
- هذا كان في البداية فقط، لقد ضاجعت مجهولاً.

زوربا، زوربا يلد من جديد ويتقمص أرواحاً عديدة؟

- ولكنها غاصت في الشر حتى أعمق سراديبه.
- ومع ذلك لاتزال أختاً لنا، أختاً للجنس البشري، وستبدأ حياة طيبة حينما تعود وسيتغير العالم؟

فصرخت به لأرى مدى تماسك أفكاره:

- إنها ملعونة.
- إنك ستلوح ملعوناً أكثر منها إذا بدوت ظالماً، إنها ابنة لهذه الطبيعة، وبالتالي فإن أي تصرف يصدر عنها هو من هذه الأرض؟

وأضاف:

- لقد أعطيتها عنوان هذا النزل وقالت سترسل لي أخبارها، لقد تمكنت من تحصيل مائة ألف فلورونا.
- هل كانت جميلة إلى هذا الحد؟
- حسناً لا أظن أن الطبيعة ستعجن مرة أخرى مؤخرة نافرة وثديين طليقين

بمثل ذلك التناسق؟

فقلت ساخراً:

- ولم تلمسها طوال الليل!
- بماذا أقسم لك؟ لقد طغى جو من حميمية الكلام والدموع، نسينا خلاله أننا عاريان.
- وهل كتبت لك؟
- للأسف لا، ربما أضاعت العنوان؟

وقفز واقفاً كأنه نسي شيئاً، وقال:

- إلى اللقاء.. إلى اللقاء؟
- انتظر، هل تعرف مكان عمل آخر غير مطعم اليهودي؟
- لا.

* * *

وعلى موقف الترام، دهشت لرؤية حبيب المصري ينتظر، وصافحته بحرارة، وبدا دهشاً هو الآخر وقلت:

- لعلك تسكن في هذا النزل؟
- أجل.
- من العجيب أن لا نلتقي.

فقال وكأنه يعاتب القدر:

- إنني أعمل من الثانية عشر ظهراً حتى الثانية عشر مساء، إنني لا أكاد أنام حتى أجد نفسي من جديد على هذا الموقف.
- إعترف أن العمل مبهظ هناك.

- نعم، كان يجب ألا تأتي، من يشتغل عندنا يصاب بعقدة نفسية فلا يفكر بالعمل ثانية، وقد يعود إلى وطنه.
- لماذا تصبر إذن؟
- هذا سر لن أبوحه.

وكان الترام قد وصل فجلسنا سوية، وكانت مقصورته تلتهب فقال وهو يفتح النافذة:

- إن أوروبا غير مستعدة للحر، لأنه نادر، في أية غرفة تقطن؟
- رقم ١٧.
- آه.. مكان الكردي، لقد تزوج امرأة تكبره عشرين عاماً من هذه القرية، انظر هذا منزلها.

وأشار إلى قرب الكنيسة وكانت هناك بيوت قرميدية كثيرة:

- أهو سعيد؟
- أهذه حياة أن تعيش مع امرأة لاتحبها، وتعمل عملاً لاتحبه، في بلد لاتحبها؟
- أتظنني أجد عملاً آخر؟
- لست أدري.. إنك لاتعرف أحداً هنا أليس كذلك؟
- لا.
- ولا تملك حق الاقامة، ولاتجيد الهولندية، المنطق يقول إن مكانك في قبو اليهودي، ولكن لاتيأس العثور على عمل ليس سهلاً ولكن ليس مستحيلاً.

فقلت كأنني أخاطب نفسي:

- ولكن النقود تكاد تنفذ... اللعنة.
- لاتخف لاأحد يجوع هنا.

كان الترام قد اجتاز طريق الساقية، وعبر بين الأشجار، ثم انعطف إلى امستردام، فسقطت الشمس على مقعدنا وقمنا إلى الجهة الأخرى وأكمل:

- أنا عندما جئت لم يكن معي أية نقود ونمت ثلاثة أيام في قارب إلى أن تساقط الثلج، وكنت أطعم الوجبة الوحيدة التي تقدمها الكنيسة للفقراء كل يوم، وكنا نقف في طابور طويل لمدة ساعة حتى يتسنى لنا تناول بعض الأرز والبطاطا. فما ان عثرت على مطعم اليهودي حتى كدت أجن من الفرح، نعم كنت تعباً في البداية ولكن كنت فرحاً بتعبي، لأنني كنت أرى بين يدي نقوداً عندما أقارنها بالجنيهات المصرية تبدو كثيرة جداً. ويوماً بعد يوم اعتدت صعوبة العمل، اسمع إن أول يوم هو أصعب يوم، والأسبوع الأول أصعب أسبوع، والثلاثة شهور الأولى هي أصعب ثلاثة شهور، وبعدها ينقضي العذاب.
- وهل أنت سعيد الآن؟
- مابك تردد سعيد، سعيد، من سعيد على هذه الأرض، إن أمامي هدفاً وأنا ماضٍ إليه.

وكان الترام أيضاً يمضي، وتساءلت هل الانسان مثل هذه الآلة؟ وقلت:

- لماذا نعيش إذا لم نكن سعداء؟

ولم يجب بشيء، ويبدو أنه كتم غيظه، ولكنني لم ألحظ ذلك فقلت:

- هل كنت سعيداً في مصر؟

فانفجر حانقاً:

- أوه.. كف عن هذا.. ليس لدي إجابة لمثل هذه الأسئلة.

واشتد القيظ في الترام، ودخل ساحة «الليتس پلين» حيث مطعم اليهودي، فقفز المصري قائلاً «إلى اللقاء» كأنه يفرمني وليس من الحر، وأكمل الترام سيره إلى مركز المدينة، سار على ضفة القناة الرئيسية، ثم عبر أمام بيت السيمفونيات، ووصل إلى محطة القطار. ولم أدر إلى أين أسير، كان حديث ستيتو قد أيقظ فيَّ رغائبي، فاجتزت القناة إلى شارع سدوم وعمورة. لم أكن أفهم حتى تلك المرحلة من عمري ماهي هذه الأهداف التي تحول الإنسان إلى آلة؟ وهل يمكن اعتبارها نبيلة؟ وفكرت ترى ماهو هذا السر الذي لايريد أن يبوح به لي؟. ولكن رؤية المدمنين المرعبة أبعدتني بقسوة عن خواطري، كانت إحداهن تجلس على حافة الجسر، غائبة نائمة تكاد تسقط في القناة، وآخر يمسك بحقنة ويغرزها بعشوائية في زنده المضرج بالدم والثقوب. وعلى طول الرصيف مقابل الكنيسة انتشر بائعو المخدرات بمختلف أصنافها، زنوج ومغاربة ويوغسلاف، وفجأة لمحت بينهم المغربي فاقتربت منه مصافحاً، فقال:

- هل أعجبتك أمستردام؟
- لابأس.. قنوات وجسور وحياة هادئة.
- هذه القنوات مليئة بجثث المافيا.
- وهل أنت منهم؟

وأشرت إلى بائعي الحشيش فقال ببساطة:

- نعم.
- ألا ترثي لهؤلاء المدمنين؟

فقهقه ساخراً:

- لايهمني لو غدت هولندا كلها على هذا النحو.

كان صعباً معتماً عنيف المزاج وأكمل بحدة:

- هل أشفق علي أحد عندما كنت في المغرب؟ هيا اذهب من هنا.
- حسناً ألا تشفق على نفسك... عندما يقبضون عليك.
- ليس في جيوبي شيء، غير هذا المقدار الضئيل، لحاجتي الشخصية، هولندا البلد الوحيد في العالم المسموح به تعاطي المخدرات علناً، من يريد أكثر ليذهب معي إلى حيث خبأت الباقي، وليس كل الباقي في مكان واحد.

وتركني وذهب إلى سيدة وهمس في أذنها «كوكايين، كوكا» ثم عاد وقلت:

- يقوم البوليس بتحليل الدم عند القبض على المرء، فيعرفون البائعين من المدمنين.
- ولهذا السبب أنا أتعاطى قليلاً، وهذا ينفعني في معرفة البضاعة الجيدة من الكاسدة.
- وغداً تتعاطى كثيراً وتنفق النقود التي جمعتها من المخدرات على المخدرات.
- قلت لك اذهب من هنا.. اغرب عن وجهي.

قالها بلا اهتمام وتبع رجلاً يعبر فوق الجسر وتقاضى منه النقود علناً، ومضيت، كان الحي أشبه بسدوم وعمورة فعلاً، دعارة مخدرات مخازن تبيع أعضاء جنسية جلدية، سرت متأملاً أجساد البغايا، ومن العجيب أن احداهن لم تثرني، وقفزت إلى ذاكرتي فجأة المغربية فسرت محاولاً تذكر الطريق، كانت الشمس تصلي الأرض ناراً حامية، بحيث يتراءى أن اللهب يتصاعد من الجدران والأسفلت والحجارة وكل شيء، كنت ألاحق الظلال بهدوء ومهارة القادم من الجنوب. «يجب أن أحتفظ بمزاجي رائقاً على الرغم من القيظ» رددت في نفسي وأنا أتذكر حياتي الجنسية منذ الطفولة،

لقد سمعت والدي ذات يوم يقول على الرجل أن يملك امرأتين: احداهن يحبها جسدها نحيل وعيناها غيورتان زابلتان وأخرى يضاجعها ذات ردفين ثقيلين وثديين كبيرين طليقين. ياللتربية الجنسية السليمة، ولكن مامبرر الذكريات الآن؟ ها قد تبددت، إن الشمس الحامية تعيد الانسان إلى الواقع بعكس مايفعله الضباب أو الليل. اجتزت شارع القناة، وانعطفت إلى الحديقة العامة، من المستحسن أن أمر هنا، في ظلال الأشجار، وإن غدا الطريق أطول، ولكن هاهي الذكريات تعود، لقد قال لي صديق في المدرسة الابتدائية انه يمارس العادة السرية لدرجة أنه يملىء طاساً كل يوم، كم من السنين كان يجب أن تمر حتى أفكك هذه الأحجية؟ وامتلأت المدرسة الاعدادية بمئات القصص والألفاظ الغامضة بحيث كان من المستحيل معرفة الوهم منها من الطبيعي من الشاذ. أما في المرحلة الثانوية فقد كانت سنوات القهر قد ابتدأت، الجسد يعوي، ولا صدى سوى كبت طويل لانهاية له. كان بعضهم ما إن يرى صورة ممثلة في مجلة حتى يقول «ياالهي.. لو أنام معها مرة ثم أموت». ولكن لأعترف أن الحرمان هو الذي كان يخلق ذلك الحب الروحي الذي يندر وجوده في أوروبا. الحرمان الطويل يؤدي إما إلى الحب العذري، وإما إلى الدعارة «قرأت يوماً هذا»، وقد أودى بي إلى الاثنين، ها أنذا ذاهب إلى مبغى المغربية والشمس تلفح البيوت بلا رحمة، الحديقة انتهت ولا مفر من مواجهة اللهيب، وقفت حائراً، علي أن أمرق إلى البوابة الكبيرة ثم أسير في ظلال الكنيسة، مزاجي لم يعتكر بعد، أعصابي هادئة وليطل الطريق مايشاء ثانية. نعم لقد مرت تلك الأيام على هذا النحو وماذا ينتظر مني بعد طول الحرمان؟ آه لماذا أذكر هذا الآن؟ أمن شدة الشبق أم بسبب التربية الجنسية الكريمة؟ لأنحدر إلى البوابة قبل أن يتقلص الظل الذي يلقيه سور الكنيسة. لاشك ستكون

المغربية مختلفة عن أولئك الهولنديات، كالاختلاف بين الأبنية الحديثة هناك وهذه البيوت التي تطل كالأوهام، تبصق السماء فوقها اللهب فتبدو كالسراب. هاهو المنزل، هاهو الباب المودي إلى الدهليز المعتم الطويل، أي تردد يصيب المرء قبل الدخول؟ مابي متهيب حتى أن فرائصي سترتعد بعد قليل؟ حسناً إنها المرة الأولى التي أقابل بها عاهرة. وخرج من الدهليز رجل شرقي ذو شاربين ثخينين، مد عنقه ونظر إلى الطريق يمنة ويسرة، ثم خطا مسرعاً وذهب. مابي متهيب وقلبي يدق؟ ربما بسبب، ربما بسبب أنني ظللت عفيفاً طيلة المدة التي قضيتها في بلدتي. أية حيرة كانت تصيب القلب عندما أفكر في التحدث مع فتاة؟ إن أية إمرأة أقابلها الآن ستحتل في نفسي نفس الموقع. وسأضيع معها بكلام حار من القلب بحيث أنسى السبب الذي جئت لأجله، الحرمان الطويل يؤدي إلى الحب العذري أو إلى الدعارة، رددت من جديد وأنا أتذكر رسماً كاريكاتوريا قديماً يمثل رجلاً خليجياً يهبط في أحد مطارات أوروبا مُنشداً «بلاد العري أوطاني». وافترت شفتاي حتى كدت أقهقه. يالشقائنا إذن، إن الكلمات لتتيبس في فمي. والمرأة العربية ماشأنها، إنها هنا في هذا الدهليز المليء بالأسرار. مرت ربع ساعة أخرى ثم طردني الحر إلى الداخل، سرت في الدهليز المعتم وانتهى بي إلى باحة الدار، فوجدت ثلاث غرف من الاسمنت ومرحاضاً بلا باب، وفي صحن الدرج المودي إلى الطابق الثاني، جلست امرأة في الستين من العمر، من يرنو إلى وجهها يدرك على الفور أنها عاهرة متقاعدة، وبقربها جلس أربع نساء يتحادثن وقد أنهك تعابيرهن الحر. عرفت بينهن المغربية على الفور، إنها تلك المختفية وراء النظارة السوداء وأشارت لي العجوز:

- انتق هذه واحدة وهذه اثنتان وهذه ثلاثة وهذه الرابعة.

انتق.. كم لهثت تحت سياط الجنس حتى أضنتني العادة السرية؟

أين كان هذا المبغى اذن؟ ومع ذلك كم من الأسى يساور القلب وهو يرى تلك النساء معروضات أمامه كالسلع؟ وكم هو أمَر أن تشير إلى احداهن وتترك الباقيات. ووضعت يدي في جيبي ونقدت صاحبة المبغى النقود. كنت قد اخترت قبل مجيئي وانتهى الأمر. ولكن كيف أتجرأ وأقول لها «أنت»؟ كيف أقاوم الاحساس بأن ذنباً خطيراً ارتكب؟ رباه.. مابي كأنني لازلت مراهقاً صغيراً، كيف أزيح الشعور بأن المرأة العربية للحب فقط؟ كيف أومىء لها دون أن أشعر بإهانة الأخريات.... أيتها المغربية، ياحبيبتي، تعالي إن الشتاء قد زال، ورجع اليمام وزهَّر التفاح. أليس هذا ماتمنيت قوله في تلك الأيام لأول حبيبة تأتي؟ ولم يأت أحد. الحب ممنوع والكلام للعيون فقط. وقالت:

- هيا أنتِ عليك الدور؟

وأشارت إلى امرأة سمينة قربها، وندّ عني صوت كأنما أقول «لا». وأومأت يدي إلى صاحبة النظارة، فإن فمي لم يستطع النطق. وقامت على الفور، وبانت عن ساقين مكتنزين، ورقبة بيضاء كالمرمر، سأطلب منها أن تنزع النظارة قبل أن تنزع ملابسها، لامهرب من لغة العيون، أية لغة؟ هل جننت؟ إنها من الصباح تكون قد ضاجعت عشرين رجلاً، إنها ليست الحبيبة، رغم أنها تتحدث العربية يجب أن تثبت هذا في رأسك، وأشارت لي أن أتبعها وصعدنا إلى الدور الثاني، وما إن دخلنا إحدى الغرف حتى أدارت مروحة السقف وأقفلت الباب واستلقت على البلاط وقالت:

- هيا تعال.

كانت الغرفة خالية تماماً إلا من المروحة التي أخذت تدور بضراوة وتهتز حول محورها حتى حسبت أنها ستنفلت وتتناثر ألف قطعة. هيا تعال! هل أنا آلة؟ يالشد ذهولي. كانت أثنت ساقيها ونظرت إلى السقف وأخذت

تنتظر ثم أعادت بصوت أعلى من السابق:

- هيا تعال.

ومع ذلك فإنني مثل هذه المرأة فقط يمكن أن أحب، عيناها مليئتان بعذابات أهل بلدي، أي شعور مرير يطفح بالكآبة سيملىء القلب عندما تحس أن انساناً ما تطأ عليه أقدام المدينة بأكملها، أيتها المغربية، تمهلي ولتتكلم قليلاً.. أنا من ابتدأ الإهانة ونقد البائعة النقود، وهاهي تعاملني بالمثل، لو أردت الحب، لو أردت الكلام، لما جئت على هذا الطريق، أيتها المغربية، أيتها المغربية، لاشيء سوى صوت المروحة التي كانت مع مرور الوقت تزداد عنفاً وأنا أزداد يقيناً أنها ستنفجر لامحالة.

- أسرع قبل أن يأتوا.. أنا مرتبطة بمواعيد.

واقتربت منها، ووضعت يدي على خدها برفق، ياحبيبتي قولي شيئاً إذن، إنني لا أزدريك وهذه النظارة دعيها في مكانها إن أردت، وانسحبت يدي إلى عنقها، ياحبيبتي هل أنت متألمة؟ هل أنت تعبة إلى هذا الحد؟ من تراك أحببت وأنت صغيرة؟ بمن تراك حلمت؟ هل تذكرين؟ هل كنت تذهبين إلى المدرسة وتأتين؟ هل تذكرين ملابسك المدرسية وفتيان الحي؟

- أسرع موعدهم بعد قليل.

من تراه المذنب؟ أنا طبعاً، أردت جسداً عارياً فهذا هو، يا أسفاً للشباب، يا أسفاً لسنوات المراهقة، عشرون عاماً لم تلامس يدي يداً ولا وجنة ولا عينين، عشرون عاماً لم تهمس شفتاي بعبارة حب ولا بكلمة ولا بحرف، عشرون عاماً من العزلة حيث تنتهي قصص الحب بطلقات الرصاص، وحيث احتلال مدينة أسهل من مضاجعة فتاة، عشرون عاماً كنت أبكي وأذرف الدموع.

وقطع الصمت طرقاً على الباب، فقالت:

- هلا فعلت شيئاً، النقود لن تعود على أية حال.

ولا الماضي أيضاً يعود، لقد روى هذا المبغى ظمأي إلى المرارة بما فيه الكفاية، كان الطرق يزداد عنفاً، والمروحة ترتج بسرعة جنونية ومن الخارج سُمع صوت يقول بلهجة مغربية:

- أسرع يا أستاذ.

وألقيت نظرة من النافذة، كانت احدى النساء تتغوط في المرحاض المكشوف، وقد بدت كأنها تجلس فوق فوهة بئر. وقامت المغربية وربتت على كتفي «حسناً تعال في يوم آخر» وفتحت الباب وما إن خرجت حتى دلف منه رجل غريب أشبه بكتلة مندفعة أما الآخر فوقف يحدق بي بغضب وقال:

- هل انتهيت؟

وكدت أغرق في الضحك ولكن الشر كان بادياً في عينيه، ففضلت الانسحاب، وظل يتأملني وأنا أهبط الدرج حتى شدته المرأة إلى الداخل. بينما شيعتني العجوز إلى نهاية الدهليز فلفحني القيظ من جديد، كان النور المبهظ يزداد توهجاً، والمنازل تذوب، لا طير في السماء، ولا شجرة في شارع، لاشيء سوى طرقات تشتعل، والحريق يمتد: لقد ضاعت النقود ياجدي، ترى كيف أصبحت غنياً؟ أذاك هو الطريق الوحيد للثروة؟ وهذه القنوات الرومانسية أتراها فعلاً مليئة بضحايا المافيا؟ وبأي طريق إذن امتلكوا تلك المطاعم الفاخرة والمباني والمخازن؟ يقول بلزاك إن للثروات الكبيرة جذوراً قديمة أو حديثة مغرقة بالدماء.

الفصل الثاني

١

كان قد مر أيـام على مغادرتي الوطن، ولكنني خلتها شهوراً لكثرة مامر بي من أمـور جديـدة، كان عقلي يتمـدد وينضـج ويتفتـح وكان هذا يجعلني منتشياً رغم إخفاقي، فقد كنت منذ حداثتي أعتبر أثمن الأشياء التي يربحها المـرء في حيـاته هي المعرفة. وفي اليوم السادس تركت المغربية العمل في النزل وحللتُ مكانها، كانت ساعات العمل ثلاثاً وكان ذلك كافياً ليؤ من لي طعـامي وشـرابي ونـومي، كان علي تنظيف الممرات والمطابخ والمراحيض لنـزل معظم قاطنيـه من المهـاجرين الفارين من الفاقة، أتراك وعرب وزنوج وبلغـار وألبـان وروس ورومـانيـون، وبعض الهـولنـديين المتسكعين الذين لايلبثـون سوى فتـرة قصيرة ثم يرحلون. لم يكن العمل مرهقاً وكان يتيح لي أن أبحث عن عمـل آخـر بهـدوء وبدون إضطراب، تحول بعد ذلك إلى فتور، كمن يفتش عن شيء ويتمنى ألا يجده، صرت أغشى المتاحف وأجلس في مقهى الشطـرنـج، أسيـر في الحـدائق وأتأمل التماثيل البيضاء فوق العشب الأخضر. أذهب إلى مكتبة المدينة وأطالع الصحف العربية، أجلس وحيداً في جنـاح الكتب العـربيـة، أرقب الصمت المخيم والعـامـلات الأنيقـات وأجهـزة الكمبيـوتر المنثورة في كل مكان والمصعد الزجاجي، وكان الجناح ممتلئاً بكتب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأخرى مترجمة، ولكن لم يكن

هناك أي قارىء عربي، عدا الذين يطالعون الصحف وبسرعة ثم يغادرون.

وظل المطر يتساقط طيلة الصيف، وحل الخريف وزادت قطراته برودة، وتبدى إصفرار الأشجار مائة لون، وتساقطت الأوراق على القبور والحدائق والقوارب، كنت خلالها أتبع القنوات حتى أجد نفسي خارج المدينة، متسائلاً أيهما أفضل أن تسير على ضفة النهر وحيدا وتتمتع بأمواج الخريف الرمادية وبالأوراق الصفراء المتساقطة على العشب الأخضر، أن تسير صامتاً هكذا إلا من الضباب الذي يلفح كل شيء، فوقك سماء رمادية وعلى الأشجار تزعق الغربان أم تمخر المياه بزورق وتعانق المدى، راحلاً إلى لاشيء، قاصداً سراباً من الضباب والعدم؟

وفي الليل كان ظلي يسقط على صفحة القنوات يتبعني حيناً ويسبقني طوراً، وكانت أضواء الترامات ومصابيح الشوارع تنعكس على المياه الكالحة، وكانت شفتاي تدمدم غالباً كلمات جبران:

هل اتخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور
وتتبعت السواقي وتسلقت الصخور

وبين حين وآخر كانت تغشى نفسي المرارة، ويشدني حنين كئيب إلى سورية، أشعر أنني أبحر في غربة لاقرار لها ولانهاية فأردد أغنية مهجرية:

أنا يا عصفورة الشجنِ
مثل عينيك بلا وطنِ
بي كما في الطفل تسرقه
أول الليل يد الوسنِ

شارع من الأشجار الحزينة، أوراق صفراء علقت فوق التماثيل، كآبة وبرد ووحدة. متى أعود وكيف ؟ السحب رمادية صامتة، والضباب لايجيب، فتكمل شفتاي الأغنية:

واغترابٌ بي وبي شجنٌ
كارتحال البحر في السفنِ
أنا لا أرضٌ ولا وطنٌ
أنا عيناكِ هما وطني

وانحسرت الشجرة عن نافذتي، غدت أغصانها عارية بعد أن اصفرت الأوراق وأطارتها الريح، وغدا المسير موحش، تحت شجرات الخوخ الكئيبة وقرب أسيجة الأبقار التي لفها الصقيع، لاشعاعاً من الشمس، لانسمة هواء لاشيء سوى ريح جليدية وصراخ بنات آوى القادم من وراء التلال.

وارتعش قلبي وأنا أرنو إلى الندفات الأولى للثلج، أسرعت إلى الشاطىء لا أبتغي صاحباً غير الريح والأشجار العارية، كانت الطيور تزعق في السماء والناس تتراكض في الشوارع وأنا أرى لأول مرة ثلجاً يتساقط بهذه الكثافة.. كانت الندفات تغازل صفحة النهر تداعب وجهي وتنفذ إلى أعماق روحي. خببت طويلاً وحيداً، ولوني قد استحال أيضاً كتمثال من الملح.

في الظلام الثلجي ذاك، أتعرف على امرأة بولونية، تعمل في مكتب الطيران الهولندي في وارسو، جاءت لثلاث شهور للتمرس على الهولندية،

وكان ذلك أسبوعها الأخير. . بشرة بيضاء. . شعر ذهبي. . عيون سخية سلافية، بحيث أن الناظر يدرك فوراً أنها من أوروبا الشرقية.

ترافقني عدة أيام. . نتحدث بالانكليزية. . نرنوا إلى الثلج، يتساقط على معطفينا، يغازل وجهها الهزيل فيحمرأنفها، أدني فمي من خدها، ألتصق بها، تتعانق ندفات الثلج المتساقطة على معطفينا، يداعب فمي عينيها وأنفها، يمر على شفتيها، أهمس في اذنها ألفاظاً إنكليزية حمقاء، ويتساقط الثلج تضيئه مصابيح الليل، ويتكدس على الطرقات والأشجار العارية.

كانت لاتزال عواطف الرجل الشرقي العنيفة للمرأة تغلي في دمي، ألقيتها كلها بكلمات عذبة مخبأة على مسامعها، لففت ذراعي حولها وشددتها إلي بحنان، غنيت لها مثل أحمق، صحبتها إلى السرير. . داعبت ثدييها. . كانت عطايا الأرض كلها مختصرة بشيء واحد أقبض عليه. وعندما أثنت ساقيها وأخذت تدفع إلي بحوضها أحسست أنها تُهدي لي ذهب وخير الأرض كلها.

وفي اليوم الأخير، ابتلعتنا شوارع المدينة من جديد، ليل وريح، قادتني إلى حديقة مقفرة. . جلسنا على مقعد البحيرة، نسمة باردة وليل ومياه بلا موج. . أراجيح منسية. . أوراق صفراء كثيرة على الأرض غطاها الثلج، وبعض الأضواء تنعكس على مياه البحيرة من بعيد. دعتني للزواج في بولونيا، قلت «العمل» قالت «سأجده لك في المكتب مادمت تتقن الانكليزية» قلت «هذا حلم» قالت «ستراسلني على أية حال». ثلج بطيء بدأ ينسل بين الضباب ويداعب وجهينا، صمت البحيرة ساحر، صقيع وبرد ووحدة. قالت «قل لي أشعاراً بالعربية» قلت «لن تفهمي» قالت «قل قل»:

ولو لم تكوني فرنجية ... لكنت سعادي قبل سعادِ
ولكني عربيٌ عربي الهوى ... عربي المنى عربي الفؤادِ

بعد أسابيع وقفت أرنو بمرارة إلى قطع الجليد المتشكلة على صفحة القنوات، تجمدت المياه وبعد أيام غمرها الثلج ولم يبق في المدينة غير الريح والأشجار العارية. . ارحل أيها الثلج. . كنت أهذي كلما سرت على الشاطىء. . فإن السهوب تنتظرني ومياه السواقي تسأل عني، ولكن الثلج استمر يعزف أناشيده الحزينة ويزيد في اكتئابي.

تساقط ثلج كثير على السهوب، النهار قصر كثيراً، والأيام غدت حزينة حزينة، محمد اللبناني لايفارق الغرفة إلا إلى حانة البحر، يتجول بين سفن المرفأ، يسأل البحارة، من رصيف إلى رصيف، ومن شاطىء إلى شاطىء، ثم يعود إلى الحانة، يثرثر مع الربابنة، يحتسي الويسكي والجعة مع بحارة، يقدم نفسه للاعبي البلياردو، والذين قدموا لشرب كأس من الجعة ثم الانصراف. ولكن أحداً لم يساعده رغم أنه عرض مبالغ طائلة، كان الجميع يظنون أنه هارب من العدالة، لم يكن أحد ليصدق أنه ليس باستطاعته الحصول على تأشيرة دخول، ويوماً بعد يوم ارتاب به النادل، كان جميع البحارة يرتادون المقهى أسبوعاً ثم يختفون، أما هو فيبقى. فقصد روتردام، كان مقهى البحارة واسعاً، لايعرف أحد فيه الآخر، ولكن السفن كانت تتوقف بعيداً جداً عن المدينة، ووعده ملاح برتغالي ولم يف، وبقي وحيداً حالماً ينظر إلى المياه متسائلاً أتراك تعبر المحيط الأطلسي ورائي ياأبي.

حبيب المصري يكاد لايغادر مطبخ اليهودي، إلا حينما يأتي لينام، لم أره طيلة تلك الشهور حتى كدت أنسى شكل وجهه. وذات يوم وفوق قناة «الليتس پلين» المتجمدة، رأيته يرنو إلى الفتيات والفتيان المرحين والأطفال

وقد جلبوا زحافاتهم وملابسهم الثلجية وجعلوا يتزلجون فوق جليد القناة، كان ينظر إليهم بذهول كأنه يقول كم هؤلاء الناس سعيدون لامبالون وكم أنا تعيس وغريب. كانت درجة الحرارة قد عبرت إلى خمس عشرة سالبة، وكانت الشمس مشرقة والثلج يتلألأ، وبدت الأشجار كالعرائس، كمجرات من النجوم الثلجية، وكان صيادون كثيرون قد ثقبوا دوائر صغيرة في جليد القناة، جلبوا سنارات ومطارق وأدوات صيد، وجلسوا فوق صناديق خشبية يدخنون ويصطادون الأسماك، كانت الطيور لاتزال تحلق فوق القناة وتقف على طبقتها الجليدية وكلاب كثيرة تتجول بمرح هنا وهناك، ورأيت فتى يركب دراجة فوق الجليد وقد وضع كلباً على المقعد الخلفي، لم يكن هناك أية ريح كانت الشمس شديدة كأنها فوق صحراء، لولا الصقيع الذي يجعلها مجرد ضياء ينير المدينة.

واقتربت منه وكان جامد الوجه حزيناً كقرد وقلت:

- كيف الحياة الآن؟
- أية حياة؟.. انني لاأشعر حتى بالزمن.. كأنني رأيتك آخر مرة البارحة.. إنني لست حياً... الشهور تمضي سريعة أتوماتيكية.. انني أشعر كأنني شيء وليس انساناً.. شيء هل تفهمني؟
- أصبحت تتحدث كفيلسوف!
- نعم، لقد نكأت جراحي في المرة الماضية، ولم يفعل أحد قبلاً هذا، لقد سألتني هل كنت سعيداً في مصر؟ إن يوماً واحداً هناك يساوي دهراً هنا. الأمل المنير المضيء كقوس قزح، الأمل الوحيد العذب البريء كوجه الطفل، الذي يجعلني صامداً في مستنقع التعب والموت هذا هو أنني أملك وطناً.. وأنني سأعود إليه ذات يوم.

وسقطت بجانبنا فتاة وانفجروا من حولها ضاحكين وقلت وأنا أنظر إلى الثلج المتجلد على شاربه:

- وقد سألتك ما الذي يجعلك صابراً في مطعم اليهودي؟ ولم تبح لي بالسر.
- نعم لقد حققت أحلامي، لقد ترك الطباخ التونسي عمله واستلمت مكانه، لقد أصبح أجري ثلاثة أضعاف ماكان عليه بالاضافة إلى يوم عطلة.
- أين الإشكال إذن؟
- إن مصدر سأمي هو عدم ولوج ما أراه إلى داخلي ليلامس الروح، إن الناس الذين أحببتهم والموسيقا التي شغفتني، والسحر الذي عبق في الماضي، وكل شيء مختلف عما أراه هنا، أتصدق لقد مررت منذ مدة بالقارب الذي نمت فيه حينما وصلت من مصر، وكان صدىء مليئاً بأوراق الخريف وحبات المطر، وتمنيت لو عادت تلك الأيام، لقد تذكرت ببساطة أنني كنت انساناً.

أما خضر فقد جاءه خبر وفاة والده، وذهبت إليه، وكانت الحجرة مليئة بالمعزين، وصوت المقرىء ينبعث من جهاز التسجيل ويُسمع النزل كله، ويُسري الخدر في نفوس الجالسين، وتحدث خضر أن المرء جلّ مايتمناه أن يراه والده وقد وصل إلى المجد هذه هي أقصى آماله ولكنه يظن أن والده سيعيش أربعة آلاف عام. وترقرق الدمع في عيني بعض الزائرين، دمع خلته حزناً على أنفسهم من طعم الغربة المر فجره ذكريات وذكريات وأساله تلاوة المقرىء وصوت خضر المجروح. كان المغربي يوزع القهوة، كان قد خرج من السجن للتو بعد أن مكث ثلاثة شهور وأعيا رجال الشرطة، الذين أخذوه إلى السفارة المغربية فأباح لهم بأنه مصري متحدثاً بلهجة صعيدية،

وفي القنصلية المصرية، رُفض أيضاً إعطاء الشرطة تصريح عودة لأنه عاد وتحدث بلهجة مغربية، ولما كانت كمية المخدرات التي ضُبطت معه قليلة أُطلق سراحه مسجلاً بين أسماء الضالين. . . وهاهو الآن يشارك في المأتم الذي امتلأ بالأتراك والألبان والعرب. وكان ستيتو بينهم صامتاً طيلة الوقت يعبث بشاربه ناظراً إلى الأرض، وظللت أحدق به حائراً، كم أذهلتني شخصية اللص المثقف المحترف والنزيه تلك؟ ومع ذلك فهو ليس روبن هود الذي يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء. من هو إذن؟ من؟.

٢

لم يدم طويلاً تجمد القنوات، فسرعان ما عادت درجات الحرارة إلى الصفر، وعاد الثلج إلى التهطال. وفي الثالث من شباط، غمرت أمستردام ندفات كبيرة ساحرة، كانت تتساقط بخفوت منذ الصباح مغرية حزينة، وتناهى إلى حجرتي صوت جرس الكنيسة، وأطللت من النافذة فرأيت الثلج يملأ المزارع كلها كما كانت تغمرها الخضرة من قبل، وبرزت الأشجار العارية سوداء من حقول الثلج التي كانت تمتلىء بسنابل القمح. واستمر جرس الكنيسة يرافق سقوط الندفات كأنه يعزف لها، كان يوم الأحد، فأسرعت بإرتداء ملابسي وصعدت الترام إلى مقهى الشطرنج. كانت حقول الزهر بيضاء والطواحين مغمورة بالثلج، والساقية تجري، تتساقط الندفات فوق صفحتها. عبر الترام القنوات الخمس ووصل إلى محطة القطار.

وفي المقهى كان ستيتو وخضر يلعبان بجوار النافذة، وقد بدا الأول مستغرقاً والثاني لاه ينظر إلى الصباح المعتم الكئيب، وطلبت شاياً وجلست قربهما، كان صاحب المقهى يهودياً وقد قال لي ذات يوم أنه لايوجد مثل حانته في العالم كله، كان في داخله غصة، المقهى فقط للشطرنج والزبائن قلائل. جدران مصفرة، عليها صور قديمة للأبطال، رُقع وساعات وطاولات

رثة، مكتبة شطرنجية زجاجها مكسور، مصابيح تقليدية وكؤوس بطولات متدلية من السقف، كان كل شيء عتيقا ومقصوداً على هذا النحو.

كان المقهى حزيناً مضجراً لايستهوي سوى لاعبي الشطرنج، وكانت موسيقاه الكلاسيكية تضفي مهابة على وجوه الزائرين المفكرين، وتمطت قطة سوداء وجعلت تسير فوق الطاولات بهدوء وسكينة، ثم نامت فوق احدى الرُقع، وانتهت الاسطوانة ولم يبق في الصالة سوى بعض الهمهمات ودقات الساعات.

ونام صاحب الحانة وأبدل الاسطوانة، فاستيقظت القطة من جديد، وكان خضر قد خسر فحللت مكانه، بينما استمر الثلج يتساقط وراء النافذة.

كانت القطع البيضاء بيد ستيتو فما أن لعب النقلة الأولى حتى تبدت الافتتاحية شاذة غامضة كما هي شخصيته، ومن خفة يده فقط أدركت أنه يتقنها بمهارة، كان افتتاح بيرد القديم المنسي المنطوي على مقامرة تتبعها مغامرات وأسرار. لم تكن مثل هذه البداية سارة بالنسبة لي فقد وجدت نفسي أمام تعقيدات لم أتسبب بها، لقد استدرجني إلى مجال غير مدروس كان في الواضح أنه خبره جيداً، فجعلت أعبىء قطعي بهدوء وحذر، منتظراً أن تلوح هفوة ومدققاً في كل نقلة، لقد حدست أنه مقبل على تضحية منذ بداية اللعب ليضللني ويعقد الوضعية أكثر. وهذا ماحدث تقريباً فقد ترك فجوة في صفوفه وقد قرر أنه لن يتسنى لي فعل شيء قبل أن يكون قد حطم دفاعي تحطيماً. لقد بدا أنه يستهين بي إلى أبعد الحدود، على الرغم من صعوبة التنبؤ بأن نقلاته القوية من حيث المظهر بإمكانها تحقيق شيء حقيقي أكثر من استفزازي.

فكرت طويلاً، متذكراً قول كيريس «لايجوز مطلقاً، حتى في أكثر المواضع الرابحة وضوحاً، الاقلال من قيمة الخصم». كانت تلك الفجوة

أملي الوحيد وربما الأخير، ولكنني اصطدمت بصعوبة توسيعها كنت بحاجة إلى استراتيجية طويلة عميقة، تُعد على نار هادئة لتشديد الضغط رويداً رويداً على نقطة الضعف تلك، وهذا ما جرى بالفعل فبعد برهة بدا واضحاً أن قطع البيض عديمة التأثير في الوقت الذي أصبحت فيه المربعات حول الملك الأبيض كافة مهددة بالغزو، لقد توغلت السود عميقاً في معسكر البيض بينما وقفت قطع ستيتو تقريباً بلا عمل، إلى أن أصبحت في وضعية سلبية ميؤوساً منها وقد ازداد وجهه توتراً وملامح خضر حنقاً، وقد لاح منذ بداية الدور أنه يتمنى خسارتي. لقد بدا واضحاً الآن أنني أقود هجوماً قوياً يصعب رده، وأن استمرار هجومه لم يعد ملائماً فقد كان عليه العودة باستمرار والدفاع بعد أن انتهى الاشتباك إلى تلك المرحلة الحرجة. في هذا الجو المحموم من المقاومة الضارية والمديدة الممزوجة بجروح في الكبرياء لفت انتباهي خضر وقد بدأ اهتمامه بالدور يفتر، صحيح أن النهاية كانت رابحة إلا أن الدور لايزال يحتاج إلى حساب دقيق، وكان ستيتو لايزال يجرب كل أسلحته ليخرج بتعادل على الأقل، كان دفاعه ينهار تدريجياً بسبب قوة هجمات السود التي لم تهن. وفجأة بدأ يطبع لعبه أيضاً قلة اكتراث واضحة بدلاً من أن ينساق من أشد التركيز إلى الاستغراق، بينما تبدى على ملامح خضر أنه لم يعد يعبأ بالدور على الاطلاق، وتابعت مخططي محاذراً أية هفوة تجعله يقوم بلعب مضاد فعلي. ومرة أخرى بدا على وجه ستيتو أنه أكثر إهمالاً لخطواته وأن مرارة الهزيمة لم تعد تؤرقه، فاحترت كثيراً، لم تنهار مقاومته كما كنت متأكداً أن قواه العقلية لم تصب بالوهن، كان يسترق النظر إلى خضر بين حين وآخر وإلى المقهى الصامت، وبدأت أشعر أنا نفسي أن تركيزي غدا أقل وبعدوى اللاإهتمام، دون أن أدرك سبباً لذلك بعد التشنج الطويل الذي رافق التحدي، فبدأت أطيل التفكير حتى لا أتيح لأية

مضاعفات أن تحدث وأضيع زمام المبادرة. وفجأة ارتمى خيال بارد متماوج على الرقعة فالتفتُّ ورائي وإذ بي أرى حسناء هولندية تقف بجانب أحد اللاعبين وتعبث بشعره فقلت:

- لقد حان موعدكما مع سدوم وعمورة.. هيا إلى اللقاء.

فانفجرا ضاحكين.

وأكملت:

- يالشدة ضعفكما أمام النساء.

فنهض ستيتو وهو يقول:

- لا تظن أنك ربحت، لم أقم بتحليل دقيق لأية من خطواتي، ولم أقدم على أية نقلة يمكن أن تُقنع نفسي بأنها ابداعية، كنت أستعمل خبرتي بصورة اتوماتيكية، إن تفكيري مشغول بشيء آخر، بالسرقة.

- إنني أتعجب كيف تثق أنه لن يقبض عليك؟

فجلس ثانية، كان إيقاع الثلج المتساقط يضفي وهناً غريباً وحبوراً ناعماً على الوجوه الصامتة، كان الضياء الشتائي الذي تسلل من النوافذ يوقع في النفس العذوبة ذاتها التي تأتي من الألحان الكلاسيكية فتغمر القلب بسكينة وخدر غريبين.

- لايقبض علي لأن ما أقوم به عمل حسابي بكل معنىٰ الكلمة انظر: في البداية أنت تمسك الشيء الذي ترغب أخذه بيديك ولنفرض أنهم ست زجاجات عطر هكذا على هذا النحو - وامسك بيديه الاثنتين حجارة الشطرنج - عندما لايكون أحد قريباً منك، ثم بعد ذلك ولثانية تتلفت حولك وإلى المدى البعيد دون خوف لأنه إذا رآك أحد وأنت على هذا النحو - وكان لايزال يمسك قطع الشطرنج ويديه مرفوعة - لا يمكنه اتهامك أو دعوة الشرطة، وإن علا وجهه الشك، فأنت لاتزال تتأمل

أسعارهم.. وجلّ مايمكنه فعله هو طردك من المخزن، لذلك لايجب أن تتهيب من مجرد رفع شيء بيدك ثم فجأةً وبلمح البصر تدخله في جيبك. لم يرك أحد، حسناً اخرج بهدوء، لن يتعرض لك أحد ولو بدا جيباك منتفخين - وأعاد القطع فوق الرقعة مضيفاً - حسناً هذا هو المبدأ العام يترافق معه معرفتك السابقة بأن أي جهاز إنذار على المداخل غير موجود، لأنه بمجرد وضع ورقة ممعدنة داخل علبة العطر تجعله يهدر حتى يسمع المخزن كله. بشكل عام يجب أن تعرف كل شيء قبل أن تدخل، فقد يكون الشيء الذي تود أخذه بعيداً أو على رف عال، عند ذلك يجب أن تقوم بإنزاله إلى مكان قريب من جيبك، ثم تغادر المخزن وتعود إليه ثانية نظيفاً خفيفاً لا أحد يرقبك تضعه في جيبك ثم تخرج. وقد يحتاج أحياناً إلى تحضير أكثر مما ذكرته كما حدث معي ذات يوم في ألمانيا، حيث لمحت مكنة حلاقة في واجهة أحد المخازن الضخمة.....

فقاطعته:

- هل كنت في ألمانيا أيضاً؟

- أجل، إن معظم نقودي من هناك، هنا في أمستردام كل شيء محكم مغلق والشرطة على الأبواب بجانب أجهزة الانذار، بالاضافة إلى مائة نوع من الكاميرات في السقوف، أما ألمانيا فأكثر ثراء، والشرطة أكثر لطفاً وسلاماً، المراقبة شبه معدومة خصوصاً في البلدات الصغيرة، فما إن يلزم المرء ألف دولار حتى يدخل ويأخذ شيئاً ثم يخرج!

- ولم يقبض عليك أبداً؟

- مرتان فقط وقد أطلق سراحي داخل المخزن حالما دفعت الغرامة لأن ماكنت خطفته أقل من مائة مارك.

وعلاني الذهول، كم من الأثقال؟ كم من التشرد؟ كم من الضياع والصبر ولازال مبتسماً متماسكاً رزيناً.

وقلت:

- وأين كنت أيضاً؟

- لقد بدأت في هولندا ثم ذهبت إلى ألمانيا ومنها إلى سويسرا ثم عدت إلى هنا، يعلم الله لسبب وحيد هو أنه في هذا البلد لاتوجد عنصرية.

وتساءلت هل من صالحهم ألا يكونوا عنصريين عندما تجتاح جيوش الجياع الحضارة، وأردف:

- حسناً دعني أكمل لك حادثة مكنة الحلاقة لقد كنت ماراً إذن بعد أن أوقف صديقي اللبناني السيارة في بلدة صغيرة بجوار الواجهة حين لمحتها تلتمع، كانت بحجم الكف وكان سعرها خيالياً ولكن الواجهة كانت مسدودة بخزائن، ورفوف طويلة مليئة بالبضائع فماذا فعلت؟ تصور لقد قمت بجر خزانة ارتفاعها متران من أسفلها وكانت كلما تحركت بوصة تطلق صريراً مروعاً فأتلفت إلى الزبائن والبائعين وأعود من جديد وأسحبها، وتهتز المعروضات والسلع داخلها وتنقلب، ومع ذلك لم يلحظ أحد شيئاً كان الزبائن والبائعون مشغولين، حتى أحدثت ثغرة يمكن لشخص المرور منها إلى الواجهة، وبرغم تأكدي أن أحداً لم يلحظني غادرت المخزن ثم عدت بعد دقائق تفحصت عيناي كل الموجودين وانسللت إلى الواجهة وضعتها في جيبي ولم أصل إلى الباب حتى كدت أصاب بنوبة قلبية. كان كلما نظر إلي أحدهم ابتسم له بشفتين يابستين مسعورتين فيتأملني من أقدامي إلى رأسي.

واستمر الثلج يهطل في الخارج هادئاً لامبالياً، تخطف رقته الأبصار التي ما إن تعلق في النافذة حتى لا تكف عن التحديق.

وقال خضر:

- ولكن لاتظن أننا ننجح دائماً، فقد نسير ونسير طويلاً وندخل مخازن كثيرة بلاطائل، وأحياناً يكون الأمر في غاية السهولة، كما حدث معي مرة حينما دخلت مخزناً صغيراً للعطور فيه بائعة واحدة، فما إن فتحت الباب حتى هرع كلبها هارباً فركضتْ وراءه إلى الشارع منادية، وعندما عادت طبعاً لم تجدني - وقهقه لوحده ثم أكمل وهو يغمزني - وأحياناً يقصد ستيتو المطار عندما تكون المخازن مغلقة.

- المطار!؟

- نعم فقد يجد المرء نفسه مرغماً إلى الذهاب إلى سدوم وعمورة بعد أن يحل المساء.

- وما علاقة ذلك بالمطار؟

فأجاب ستيتو:

- هل تظن أنني أنفق من نقودي على البغايا؟ إنني إذا لم أسطُ على شيء لا أذهب إليهن، وعند المساء تكون مخازن المطار فقط غير مغلقة، بالمناسبة ما هي عقوبة من يسرق ويزني في نفس اليوم عند الله؟

فقال خضر:

- الجنة.

وأكمل ستيتو:

- في عهدي الأول، كنت أجوب المدينة كلها، أقضي سحابة النهار متجولاً من مكان إلى آخر، حتى يتسنى لي تحصيل المبلغ فلا أصل إليهن إلا وأنا محطماً مجهداً لاهثاً، وكنت أقول أن الحياة كلها على هذا المنوال، إنك لاتحقق ماتحلم به إلا بعد أن تصبح عجوزاً لافائدة منك.

فقال خضر هازئاً:

- ياله من مثال.

وأكمل ستيتو:

- وذات يوم كنت أودع صديقاً راحلاً إلى الجزائر، فأذهلني ضياء محلات المطار واتساعها وأنوارها، ولم أعد إلى شارع سدوم وعمورة إلا وفي جيوبي عشر زجاجات من عطر opeom وهناك ذهلت أكثر عندما تخاطفن الزجاجات مني كأنهن لايصدقن، وامتلأ جيبي بالنقود، فقضيت النهار هناك. من غرفة إلى أخرى حتى ضاجعت ثمان في يوم واحد.
- ثمان!؟

وضحك خضر من جديد:

- وكيف كنت تفعل ذلك؟
- الأمر في غاية البساطة، إنني حالما أشعر بلحظة الانتهاء أذكر نفسي بالمواقف المرعبة التي تمر معي في المخازن، فترتد الشهوة إلى الوراء، فأمضي ذاهباً إلى غرفة أخرى.

فصاح مقهقهاً وهو يربت على كتفه:

- برافو.. إنك وحش حقيقي ياستيتو.
- وعدت إلى البيت مرتوياً منتشياً شاعراً بحرية غريبة كأن أثقال العالم قد أزيحت عن كتفي، ولم أعد أختطف سوى ذلك النوع من العطور، حتى صرت أعلم أين تقع تلك المجموعة في كل مخازن المدينة، وليقصفني الله بالصواعق، إن كنت أكذب: لقد كانت تمر علي أيام أضيع فيها حالما أرى تلك العلبة الحمراء وتمتلىء نفسي بالشهوة.

ونظر إلينا فألفانا نحدق به بلهفة فأكمل:

- تعبت من عهري، لم تعد القضية مسألة جنس أصبحت مسألة تحد، مسألة ماضٍ وانتقام، مسألة خمر وفجور، بل لقد جاءت أيام شعرت فيها أن عينيَ تغوران عميقاً في محجريهما، ونفسي صدئة حتى التقيؤ.

ودلف من البوابة ثلاثة رجال، ولفحت المقهى ريح ثلجية باردة، بينما استمر تراقص الندفات في هدوء الشارع الحزين.

- كنت أشعر أن جسدي جاموسة شريرة ما إن يمضي اسبوع حتى يبكي لامرأة عارية قربه، ولكنني لم أصبح عبداً على العكس مع مرور الأيام صرت أحس بكبرياء من غدا أقل عبودية للجنس، صرت أشعر أنني لم أعد ذئباً مفترساً كما في الماضي. هل تفهم ما أعني؟

ولما لم أجب نظر إلي بإزدراء، كأنه يقول بأنني لاأفهم شيئاً ولا أعرف شيئاً فقلت:

- لنسلم أن كل فلسفتك منطقية منذ البداية حتى النهاية، ولكنك تسلك طريقاً مليئاً بالخطر يودي إلى السجون، إلى متى ستظل متأهباً؟ الوتر المشدود بصورة دائمة يرتخي.

ونطق وجهه بأنني لم أفهم كما أدعي، ولايهمه كثيراً أن أفهم، وازدحمت الكلمات عند شفتيه، وخرجت انتقامية سريعة كأنه يتقيأها:

- أنت ماذا فعلت منذ أتيت إلى الآن؟ تأكد لو كنت نزلت إلى المدينة وحطمتها ثم عدت سيفرح بك الله أكثر من أن يراك مجرد أكلت وشربت ونمت.

وكأنه شعر بالندم للفظاظة التي تبدت منه فقال:

- لاتظنني شريراً بحق السماء، سأروي لك حادثة وقعت معي في بازل، وسترى بنفسك. كنت أتجول وحيداً في المدينة، وكان السويسريون يحتفلون، كانت الأكشاك وبائعو الطعام والألعاب قد انتشرت على

جانبي الطريق الطويل لمركز المدينة، الذي ازدحم بالناس والأطفال والمرح، حتى لاتكاد تجد موطىء قدم، كان الوقت صيفاً وألوان الملابس وضحكات الفتيات، ورائحة الشواء قد غمروا المدينة بالبهجة فعلاً. وتراكض الأطفال تحت شمس زاهية حارة من ركن إلى آخر ومن أرجوحة إلى أخرى، وفجأة قصف الرعد من بعيد، وبدا كأنها تمطر خارج المدينة، وتجولت بينهم حتى أمضني الجوع، فوقفت أتناول طعامي عند أحد أكشاك الشواء، وبدا صاحبه سميناً ذا شاربين، محفظته ممتلئة بالنقود يضعها أسفل مصطبة الفحم، استرقت النظر إليها ولعقت لعابي، لم تكن قريبة من يدي ولم يكن من المحال جلبها. ونظرت إلى شاربيه بغيرة وأنا أغادر: كم من الطعام عُلف في حياته هذا السويسري السمين وأنا وأخواتي ننضور من الجوع؟ وتابعت طريقي بين الناس والبائعين، حتى إذا وصلت إلى نهاية الطريق تأملت المراكب فوق نهر الراين والجسور وعدت إلى الشارع المزدحم، وقصف الرعد من جديد، وبدت طبقات من الغيم تتكاثف وتحجب الشمس، ووقفت أتأمل لعبة طريفة مؤلفة من كرات ومطارق طويلاً، وشعرت بالجوع من جديد فعدت إلى الرجل المعلوف، وزمجر الرعد بضراوة وأنا أتناول الطعام، وامتلأت السماء بغيوم رمادية معتمة، وتناول البائع قطعة ورقية ووضعها في المحفظة ثم ألقاها من جديد تحت المصطبة. وحاولت الاقتراب منها متصنعاً تناول علبة الملح، ورحت أمضغ ماداً يدي إلى أسفل، مقترباً شيئاً فشيئاً، وبلغ بي التوتر مداه، يا إلهي كم هي بعيدة؟ كان الناس حول مصاطب الكشك يأكلون ملهيين، ولكن كيف أتناولها من قرب خصيته، وفقدت الأمل، بدت لي مجازفة من الخطأ الإقدام عليها حتى ولو نجحت بالصدفة، وفجأة هطل من السماء سيل من الرذاذ ثم عصف

وراءه مطر غزير والناس تدافعوا وهرعوا إلى داخل الأكشاك. وعلا الشارع اضطراب عظيم، أما حولي فقد امتلأ الكشك بالفوضى والضحكات، وسرعان ماغدت المحفظة تحت قميصي، ولم يبق علي سوى الخروج، ولكن فجأة دخلت امرأة عجوز كسيحة ضاحكة على كرسي آلي وقد ملأ وجهها حبات المطر، وانحنى البائع وقبل وجنتيها قائلاً ببراءة الأطفال:

- أماه لقد بعنا بسبعمائة فرنك!

فابتهجت حتى بدا لي الدمع يسيل من خديها ومدت يديها الإثنتين قائلة:

- تعال لأقبلك مرة أخرى.

أحسست أن قلبي ينشطر، وأنني لن أكون أكثر من عفريت أسود بين الملائكة إذا مالذت بالفرار، فألقيت المحفظة مكانها على مرآى منه وخرجت، واحتار الرجل وهو يراني أبتعد: هل يناديني؟ هل يصرخ؟ وجدته يتلفت حوله وينظر إلى داخل المحفظة كأنه يتسائل «ماذا أفعل؟». نظر إلى نقوده وإلي بحيرة وغرابة، كان متأكداً أنها لم تنقص شيئاً ووجهه يقول: هل هو مجنون أم سارق؟ ما الذي جعله يعيدها؟ يبدو أنني سأظل أحير ذلك الرجل كلما تذكرني.

وبدا الذهول في عيني خضر وقال وعيناه جاحظتان:

- هل أعدتها فعلاً؟

فصرخ ستيتو:

- نعم لقد أعدتها أيها الوغد، لأن هنا يوجد قلب وليس حجراً.

وأشار إلى صدره، بينما دمدمت في نفسي زوربا... زوربا... وأمسك صاحب المقهى بطرفي الاسطوانة وقلبها، بينما أخذت القطة بالمواء لسبب مبهم. ونهض ستيتو إلى المشرب وجلب لنا شطائر وشاياً، وشرعنا نأكل

بصمت، كان المقهى هادئاً معتماً أليفاً كعادته، وقلت بعد أن أنتهينا:

- كنت أقصد أن تتوقف عن الأشياء الخطرة.

- وأي شيء غير خطر في هذه الحياة؟ إنك كيفما سرت تجد الهاوية حولك فاغرة فاها!

رباه... ماذا يقول؟

- الطريق الصحيح مبعث للهدوء وبالتالي السعادة.

- السعادة!... تأمله ياخضر.. هل تظن أنك تأكل وتشرب وسعيد؟ أنت مجنون إذن، ليس هذا سوى قصة!!

وأردف بغموض:

- هل تعتقد أن ماحولك الآن كراسي ورُقع وخزانة، ليس كل هذا سوى أطياف صدقني لاشيء موجود.... إنها قصة.. قصة.

- كل ماتقوله غير مفهوم.

- حسناً سأشرح لك... إذا كان كل ماتريده النفس لاتجده ولاتصل إليه، ونعيش بطريقة غير متكاملة لانحبها، كيف يمكن أن يقال أننا موجودون؟ كيف يمكن أن يقال هذا اذا كنا نكتشف عاجلاً أم آجلاً ودائماً أن الأشياء التي قمنا بها لم تكن سوى وهم؟

وصمتُّ، كان علي أن أفكر دهراً قبل أن أجيب، فأردف:

- لقد رأيت في الحلم ذات يوم نفسي مقاداً إلى حبل المشنقة، ولكنني لم أكن أبداً تعيساً، ونظرت إلى من حولي وكان هناك محكومون آخرون، أيديهم مكبلة ووجوههم حزينة، ولكنني نظرت إليهم بغموض وسخرت، كنت أشعر أن حياتي منذ البداية لم تكن سوى حلم. وقلت لهم ضاحكاً هل تظنون أننا مساقون للموت؟ ولكنهم كانوا مشغولين جداً عني فكلمت نفسي، ليس كل شيء سوى حلم، لايوجد مشنقة ولا يوجد محكومون،

ولم أكن منذ الولادة سوى ممثل، ممثل راضٍ لأن دوره سينتهي باكراً، وتعيس لأجل ذلك، ولكن الحزن غلبني بعد ذلك فاستيقظت.

وضاق صدر خضر فوقف قائلاً:

- هيا لنقم.

فنهضنا بهدوء، وتبدى لي معطفاهما ممزقان من الداخل، عند الخصر، ولمحني ستيتو أسترق النظر فقال ضاحكاً:

- لقد وضع خضر مرة تلفازاً هنا.

كنت مبلبلاً حتى أعمق أعماق العقل، فلم أدر ماذا أجيب، وخطونا فوق الثلج متجهين إلى موقف الترام فقال ستيتو:

- مابك لا تتكلم؟

- ليس عندي ماأقوله سوى أنني لاأحب أن أراك، أبداً في السجن.

فرد وهو يهز رأسه:

- أتصدق.. لقد مرت بي أيام كنت فيها أصيح وأنا عائد وجيوبي مليئة بالمسروقات اقبضوا علي.. أوقفوني.. لقد تعبت.. تعبت.. كنت أشعر بالروح تذوب والضمير ينزف، ولكن كان أسهل عليهم أن يأسروا الريح من أن يروني، إن أحداً لايستطيع أن يتمكن مني، كم مرة قلت هذا؟ ليس لأنني غدوت محترفاً، وليس لأنني أسرق الأشياء الرخيصة فقط، وليس لأن حجرتي خالية من المسروقات أو النقود، وليس لأنه لم يبق لي سوى مدة قصيرة ثم أعود إلى الجزائر، بل لأن القانون إنساني جداً انظر إنه لغاية الآن لايزال سجلي العدلي أبيضاً في هولندا، وإن قبض علي في أي مخزن سأدفع غرامة هناك مهما كانت بحيث لاتُستدعى الشرطة، ويجب أن يأتي البوليس ثلاث مرات قبل أن أودع في

السجن في المرة الرابعة لمدة شهر فمما الخوف إذن؟ إن صفحتي بيضاء الآن كما هو حالك.

وأطبق الصمت من جديد، صمت من الصراخ والغموض والرهبة، وتبدى من الترام السهب الذي يصل الساقية بالطواحين مغطى بالثلج، لم تتوقف الندفات عن التساقط منذ الصباح، وحين جاء الليل انفتحت السماء وسفح نور القمر البارد السهوب الثلجية، ثم تناثر نتفاً في حجرتي من وراء أغصان الشجرة، وكنت لا أزال غارقاً في التفكير في اللغز الذي اسمه ستيتو.

٣

فارقت درجات الحرارة الصفر، والريح غدت أكثر طراوة، اختفت الثلوج، واقترب الصوم الكبير، من يسير في الحدائق، يتتبع القنوات، ويقصد البساتين، يتناهى إليه، إن أصاخ السمع، أصوات عربات من بعيد تبدو وكأنها تحمل الربيع. آذار يقترب، مهرجو الشوارع والعازفون وراسمو اللوحات الملونة على الأرصفة والذين لم يختفوا تماماً، عادوا يقفون عند كل زاوية، يتجمع حولهم الناس ويرمون إليهم بالنقود.

وهطلت الأمطار مراراً، وازداد في نفسي الشعور بالغربة والعزلة حدة، لم أكن أشاهد أبداً أي عربي سعيد مشرق الوجه، كان الجميع ضائعين ماديين منهكين بحيث لايُعرف أيهما أفضل أن تستسلم لفقر لانهاية له في الوطن أو تعوم في بحر من الغربة توهم نفسك فيه أنك سعيد لأنك تأكل وتشرب، ياإلهي كم رددت «ماأسوأ أننا بدون حضارة». لم يكن هذا الجمال يخصنا في شيء، لم يكن ـ كما قال حبيب ـ ينفذ إلى الروح. وزاد من كربي تلك الفترة، اكتشافي فقدان جواز السفر، ولم يكن في أمستردام أية قنصلية سورية، وكان الذهاب إلى القنصلية في بروكسل بالاضافة إلى نفقات الجواز يحتاج لخمسمائة فلورون، ولم أكن أملك فلورونا واحداً.

وقبل عيد الفصح بأربعين يوماً، بمناسبة اليوم الذي جلس فيه يسوع

وحيداً في برية وابتدأ صيامه، غصَّتْ المدينة بمتنكري الكرنڤال، وكان معظمهم قد صبغوا وجوههم حتى يكاد لايبدو لون بشرتهم. وارتدى أحدهم عباءة اعرابي بينما وقفت بجانبه امرأة تصبغ وجوه أطفالها، وبجانبها جلس زنجي يعقد شعور البنات على شرائط بطريقة مضحكة مقابل خمسة فلورونات. ومر أربعة بلباس المافيا، نظارات سوداء، طقوم سود تحتها ياقات بيضاء، سحنات مقتضبة وقبعات سوداء، وظهر أربعة آخرون بأردية بيضاء وسوداء مخططة كحمير الوحش. وكانت الشمس ساطعة تزيد من إشراق المدينة وقالت لي إحداهن وكانت قد طبعت على خدها العلم الهولندي: لماذا أنت غير متنكر؟ وكانت تتدثر برداء راهبة وتضع نظارات طبية. وعبر خمسة فوق جسر متنكرين بملابس عسكرية، كاد يفرغ أحدهم زجاجة كونياك بأكملها في فمه وهو يرفعها عالياً في الهواء، ووقفت صديقته تنظر إليه بإعجاب وقد اعتكر كفيها بأصباغ تبعث على الغثيان. ومرت بجانبي فتاة صغيرة تضع على رأسها قبعة لضابط في البحرية. ولم يستثن كل ذلك رجال الشرطة، كان كثيرون منهم يتجولون بملابسهم الرسمية ومسدساتهم وقد بدا على شعورهم أووجوههم شيئاً ما شاذاً، وإجتاز أحدهم أمامي عادياً خالياً من الأصباغ أما أذناه فزرقاوان، كانت المدينة تبدو بلا أحزان، بلا نفوس مثقلة بلا تركة قديمة من العسف والحقد والعذاب. الأتراك وحدهم وسط هذا الحشد كانوا يسيرون متجهمين، ينظرون إلى الناس غير مبالين، الأتراك والعرب وغرباء آخرين من العالم الثالث تلوح لهم تلك الأصباغ والضحكات والقبعات الدنكيشوتية أكثر بكثير مما يستطيعون تحمله،من الكثرة بمكان ذكر كل الأوصاف التي تبدى عليها الناس، أحدهم بملابس الهنود الحمر وآخر بزي فرعون وثالثة ثبتت فوق أنفها عضواً ذكرياً بلاستيكياً وكان الجميع يهتفون راقصين منتظرين مرور الكرنفال.

وأخيراً مرت العربة الأولى، وكان داخلها جوقة من العازفين على الطبول والأبواق مرتدون ملابس الكشافة، وعبر وراءها مجموعة من النساء يمتطين أحصنة بزي غريب ملون لم أدر ماهو، ثم مرت جوقة بحارة يتقدمها أحدهم ملوحاً بالعلم الهولندي، وتلا ذلك شاحنة من النساء بتنورات قصيرة جداً وكانوا يرمون بقطع السكاكر على الحشد، ثم مر مجموعة من الأطفال يرتدون ملابس ديناصورات وتماسيح خضراء. وقُرعت طبول من بعيد فانتظر الناس مرور شاحنة تقل قلعة من كرتون عليها أعلام كثيرة ورموز مبهمة وملابس ترمز لأساطير وأبطال شعبيين هولنديين. وعبر جرار زراعي يقطر عربة ملونة فيها مجموعة من الرجال والنساء بملابس ملكية جعلوا يرمون المتفرجين بالهدايا وكان الأطفال يتهافتون من مكان لآخر لالتقاطها. ومرت مجموعة بزي طواويس ومرت فتيات السيرك على دراجات بعجلة واحدة ومر فتيان يحملون بنادق من طراز قديم جداً. ثم اجتازت الطريق عربة يجرها حصان تحوي براميل خمر من أنواع القرون الوسطى، كان الكرنڤال طويلاً طويلاً، طاف المدينةمن ساحة الدام حتى الليتس پلين، وكان الناس منفعلين ضاحكين على جانبي الطرقات، وكانت الأغاني تصدح من المكبرات والحشد يموج ويحتسي الجعة.

في الأيام التى تلت امتلأت البارات بشاربي الجعة المتنكرين، كانت تغص ليالي عطلة الأسبوع وطوال أيام الصوم تلك كان يتصاعد أصوات الرقص، والموسيقا الصاخبة والضحكات من الحانات إلى الشوارع والوجوه تمتلىء بالفرح والجنون، انقلبت مقاهي الليل تلك مسارح حقيقية لرقص مسعور يتجاوز أقصى حدود انفلات الروح، كانت الغبطة والخمر والمجون والأيدي المتشابكة يتجاوز مايحدث في أوروبا كلها بمرات عديدة، شبان وفتيات يريدون أن يصلوا بمرحهم وصخبهم وحبهم حدود المستحيل، وكنت

أقف متأملاً إياهم متسائلاً كم من البيرة قد شربوا باسمك يايسوع؟ كان لايزال في البرية صامداً زاهداً وحيداً، ولكن أحداً لم يكن يفكر به الآن، لقد تركوه كما يترك الطالب أستاذه عندما يصير هو نفسه أستاذاً.

في تلك الأيام وصلتني رسالة من البولونية، تقول فيها إنها وجدت لي العمل المطلوب، وما علي سوى المجيء، وتختتم الخطاب بقبلات ووعود، كان نيسان يقترب والرياح تهب، فمضيت إلى الشوارع مفكراً، وجلست على ضفة قناة، عندما تناهى إلي صخب آت من حانة قريبة، كان الليل قد حل، وكنت أتساءل هل أرحل إلى بولونيا؟ هل أبقى هنا؟ هل أعود إلى سورية؟ ولما لم يجلب لي هدوء الساقية الحل دخلت الحانة عسى يجلب لي الصخب النسيان.

كان الطابق الأول محجوزاً لحفلة خاصة، وكان معظمهم كبار في السن يتسامرون وفي أيديهم أقداح من الجعة ورغم نظراتهم المنطفئة فقد كانت ألوان ملابسهم زاهية جداً وكل منهم يفعل المستحيل لكي يبدو شابا ودوداً باسماً، وكانت تطغى على المكان موسيقا هادئة رتيبة، والنادل لاينفك يوزع البيرة باستمرار فقد كانت الأقداح لاتلبث في أيديهم دقائق حتى تفرغ. وكان بينهم يقف شبان وفتيات في الخامسة عشر والسادسة عشر يحتسون البيرة منفصلين خجولين مترددين كأنهم لايعرفون كيف يبدأون ويمتزجون في رقص مشترك. أما في الطابق الثاني فقد انطلق الرقص المسعور، كانوا شباناً وفتيات أعمارهم بين العشرين والثلاثين، وكان صخب أغاني الروك يصم الأذنين، بحيث لايمكن أن يعرف فرد مثلي قدم من الجنوب هل قام بتلحين هذه الأغاني فنان أم صُنعت بمعامل الحديد والفولاذ وأشرف عليها مهندسون وخطاطون؟ كان المكان معتماً في جانب ومضاءاً بشدة في جانب آخر حيث كانوا يمرحون كالجياد راقصين في

حلقات وقد وضع كل منهم يده على كتف الآخر وفي قبضته كأس من البيرة ينفجرون ضاحكين كلما تناثرت على الصدور وعلى الأرض. وانزويت وحيداً صامتاً مكبلاً بأغلال من الأحزان والحسابات، أرقب الوجوه المشعة بتلك المسحة اللذيذة التي تميز طيبة الهولنديين ممزوجة بتلك الحرية التي يتركها الرقص والضحكات على الملامح، يتناهى إلي انفجارات الكؤوس على الأرض، ولا أعرف كيف تذكرت أغنية عبد الحليم «حبيبتي أنا من تكون»، فبدوت أكثر كآبة، ويلوح أنني لفت أنظار مجموعة ممن حولي، فتبدى على وجوههم الدهشة، ومدت احداهن يدها مشيرة أن أنضم إليهم، فأومأت إليها مبتسماً بأن لا، فاقتربوا جميعاً مني وأخذوا يرقصون مبتسمين، كأنهم اتفقوا فجأة ولا ارادياً أن يخرجوني من قنوطي، لقد ملأتهم تعابيري رغبة في انقاذي، لم يكونوا ساخرين أبداً، على العكس لقد ازدادوا حماساً عندما أشعرتني رقتهم أن جمرات الكآبة تخبو في نفسي، ويصفو وجهي، ومدت لي يدها من جديد، فخجلت، لأنني لم أكن أملك أية خبرة في مجاراتهن. لم أرقص فعلاً، كنت أقوم بحركات غريبة، لم يعرفها أحد قبلي، تنشأ من انسجام عفوي لأعضائي مع اللحن... ولكن حركاتي الغريبة تلك لايخفى عليهم زيفها فتسارع وتعلمني، وعندما لفحني هواء الليل من جديد كانت الساعة قد جاوزت الثانية وكان السؤال لايزال يتردد في نفسي هل أذهب إلى بولونيا؟ متى؟ وكيف؟

وبعد عيد الفصح بأسبوع قصدت غرفة ستيتو فلم أجد أحداً، ولم يحضرا أبداً ذلك اليوم، ثم تكرر غيابهما ثلاث ليال، فقلقت، وأخبرت حبيب ومحمد والمغربي، لأنه لم يحدث أن ناما خارج النزل في يوم من الأيام وعندما رأيت ستيتو قال:

٤

كنا قرب متحف ڤان كوخ حين مررنا بجوار مخزن للساعات، ولما ألقيت نظرة إلى الداخل، وجدت البائعتين مشغولتين بالبيع وقد عُرضت شتى الأصناف على المصطبة أمامهما، كان المخزن مليئاً بالزبائن المترفين الأنيقين، كانت الفرصة طيبة ملائمة، فدخلنا، وجعلت أتأمل الأصناف الكثيرة ثم واريت اثنتين في جيبي، ولما هممت بالخروج شدهت لرؤية خزانة مليئة بالذهب، أساور وعقود وخواتم، وكان خضر في غفلة مني قد تمكن من زحزحة زجاجها وراح يحشو جيوبه، وطاش صوابي، وكبتُّ صرخة كانت ستفلت لامحالة، وتلفتَ حوله وحينما أدرك أن أحداً لا يرقبه، فتح الباب وغادر، ولم يبق أمامي سوى الخروج، ولكن في اللحظة التي وضعت فيها يدي على مقبض الباب، تلفتت البائعة بعفوية إلى الخزنة الفارغة ثم نظرت إلي وصاحت كأنما لدغتها أفعى، وتوجه الزبائن بأبصارهم إلي وكنت قد غدوت خارج الباب الزجاجي، وصاحت البائعة الثانية «الذهب.. الذهب»، وغادرتا المحل ورائي وهما يزعقان «اللص.. الذهب» وأمسكني أحد المارة من سترتي وأنا أفر، فخلعتها وركضت بقميص مفتوح الصدر. وعثرت على دراجة فامتطيتها وأسرعت بأقصى طاقتي، حتى غدوت خارج المدينة. حيث أخذ يراودني دوامات من الحسابات والتفكير والغيظ:

لقد رأى الجميع ملامحي، صورتي الشخصية على بطاقة النزل داخل السترة، اللعنة على من أنجبتك ياخضر. وغشى رأسي مجموعة متشابكة من أسئلة بلا إجابات: ما الذي حدث بالتفصيل؟ أين فر الوغد؟ ماالعمل الآن؟.

أبقى عقلي كل تلك التساؤلات معلقة وغطس في ذهول ضبابي عقيم، كأنما يؤرقه كيف قلت زمام الأمور منه أكثر من الخطر المحدق. وغرق في سحابة من الأوهام والصور والخيلاء، كانت ريح نيسان الباردة تلطم وجهي وتغير على البساتين، وبرز غيم أسود رهيب من بعيد، وبدأ يقترب حتى أصبح فوق دراجتي. ورذ المطر بارداً كالثلج وكانت طبقات الغيم تتداخل بيضاء ورمادية، ثم تنفصل وتبتعد، وتبدو بينها زرقة السماء، وألقت السماء وابلاً من المياه فوق الأرض، ، كانت الحقول على يميني وعجلات السيارات تغرقني في المياه من الجانب الآخر. ولاخت لي قنطرة من بعيد، فانطلقت بالدراجة كالبرق ضاغطاً بأقصى طاقتي على السيار الذي انقطع فجأة، فظننت أن كارثة أخرى نزلت بي، لم يكن قد تغير شيء إلا أن عقلي كان مأخوذاً لم يدرك أنه بالامكان السيطرة على المقود بالرغم من السرعة المذهلة وانقطاع السيار. فاصطدم الدولاب الأمامي بالرصيف. ولا أعرف كيف قُذفت بعدها في الهواء، وهويت بضراوة على مفصلي الأيسر. كل ماأذكره شعوري بالعبث وبأن الموت على بعد ثانية واحدة فقط مني، يتخلله احساس بالرعب من إله غامض يعاقبني، هذا ماانتابني في تلك الثانية الفظيعة التي بقيت فيها معلقاً في الفضاء، وكأنه صعد من صدري صوت ينادي «الرحمة»، لأنه في تلك اللحظة التي ارتطمت بها في الرصيف كانت بقية النداء لاتزال تتردد: «يا الهي.. ليس ذنبي.. ليس ذنبي..»، كانت البديهة قد عادت إلي عنيفة حادة لدرجة أنني تذكرت أن

أبقي رأسي مرفوعاً فأهوي فقط على ظهري. واستعر في ذراعي ألم مريع مزهق، وروعني الرعب وأنا أرنو إليها بعينين واهنتين، كانت عظام الساعد قد انتزعت تماماً من المفصل وبرزت خارج الجلد الذي أخذ يتدفق منه الدم ويختلط مع المطر ثم يصب في مصرف بجوار رأسي ونظرت إلى الغيمات الباردة، وتبدت لي سخية مشفقة فقلت كمن يخاطب إلهاً رحيماً متوارٍ هناك «دعني أرى وطني.. يا إلهي.. يا إلهي.. لا أريد أن يروني مفجوعاً». لقد قطعت له عهداً مقدساً لا رجوع عنه. واستطعت أن أحرك أصابعي بوهن، وراودني بعض الإطمئنان، كانت الدراجة مقلوبة أمامي وعجلتها الخلفية لاتزال تدور، وكان المطر يغرق الطريق، وسيل السيارات يمضي لا مبالياً، والسحب تتجمع وتدور وتفترق حليبية رمادية وسوداء، وجعلت أشير بيدي اليمنى للسائقين، ولكن أحداً لم يراني أو يتوقف، كانت قواي على وشك أن تنفذ، وخرير المصرف لاينفك يصل إلى أذني، عندما رأيت فوق رأسي ساقي امرأة وقالت برقة خلت أنها ملاكاً هبط من الغيمات «اهدأ.. لاتخف.. في سيارتي يوجد هاتف.. سأطلب الإسعاف»، وتجمع وراءها حشد من السيارات، وقام أحدهم بتغطيتي ولكنني أبعدت الغطاء عن صدري وتركت المطر يطفيء جسدي اللاهث الحار، وظللت متيقظاً، حتى لمحت المروحية تهبط في منتصف الطريق، وترجل منها طبيبان جعل أحدهما يمد ملاءة تحتي قائلاً للآخر: «دع يده على حالها» وقاما بنقلي إلى داخل الطائرة، وكانت مروحتها لاتزال تدور، وقلت والأسى يعصر نفسي «هل يمكن أن تعود كما كانت؟» وتفحصني ملياً وقال «أعتقد ذلك.. سنرى». وقلت «أرجوك لاتشفق علي قل الحقيقة» فقال «ستثبت العظام بقطع معدنية» ووصلت سيارة البوليس وصعد إلى الطائرة شرطياً سميناً طيب الملامح وقال «هل تسمعني؟ هل صدمك أحد؟» وأومأت إليه بأن «لا» فسأل

الطبيب «هل يعي ماأقول؟» وكرر علي السؤال «هل تفهم الهولندية؟ هل صدمك أحد؟» فقلت «لا.. لا أحد»، وخارت قواي.

واستيقظت من جديد تحت جهاز الأشعة وكان يجلس بجانبي طبيب وسيم هادىء الوجه، أربعيني، وقور ورقيق السحنة، فقلت بخوف «هل تعود يدي كما كانت؟» فقال بلهجة عاطفية ووجه عذب رزين كأوجه القديسين «نعم». إنني لن أنسى هذا الطبيب مطلقاً مادمت حياً، لقد شعرت فجأة أنه لافرق لديه أنني عربي أو سارق أو غني أو فقير، لقد أحسست أنه يرنو إلي بوجه رؤوف لايعرف العنصرية نظرات من الإخلاص والتواضع كأنها ليست من هذه الأرض، لقد غرقت قربه في بحر من الإلفة وكانت الممرضات يطرن حولي ومن فوقي، تلامس أثداؤ هن صدري، يبدلن أوضاع يدي تحت جهاز الأشعة، ثم يبتسمن ما إن يلحظن أنني أنظر إلى وجوههن. وقال الطبيب وكأن نبع من المودة في داخله «والآن ورغم أنها ستؤلمك، يجب أن ينثني ساعدك لالتقاط الصورة». ولم أشعر إلا بقليل من الألم، وفجأة دخل الشرطي السمين وقال لي: «هل تفهمني؟ هل صدم دراجتك أحد؟» فأجبته بأن «لا» فغادر هازاً برأسه كمن أكمل مهمته. ثم نُقلت إلى غرفة العمليات وتجمع حولي خمسة أطباء، وأخذ أحدهم يفحص رأسي قائلاً «من العجيب، أنه لم يصب الجمجمة أي أذى!» وسألني آخر «هل فقدت الوعي عندما سقطت؟» وأجبت بأن «لا»، ووقّعت على ورقة برغبتي في اجراء العملية، وسألت من جديد هل نعود كما كانت؟ فأجاب أحدهم ولكنك لن تستطيع أن تبسطها أكثر من ١٨٠ دجة، ولأول مرة ألاحظ أن اليد يمكن تصنع زاوية منفرجة، وحقنتني الممرضة بإبرة المخدر فشعرت لثواني أن العالم تغير وأصبح مسحوراً سعيداً باسماً.

عندما استفقت شعرت بعطش شديد ورأيت يدي مثقلة بالجبس،

كان الصباح قد أشرق، ودخلت ممرضة وسألتني عن عنوان لتتصل بأقربائي، فطلبت منها كأساً من الماء، وأعطيتها رقم هاتف المغربي، وحين حاولت النهوض لم أستطع، اكتشفت رضوضاً كثيرة في كتفي ومعصمي وشتى أنحاء جسدي، وحاولتْ أن تساعدني في الذهاب إلى المرحاض، ولكن ماان جلست على حافة السرير حتى دار بي رأسي وكدت أغيب عن الوعي، فعدت واستلقيت، واكتشفت أنابيب تقطر بالدم تخرج من تحت الجبس وتنتهي بزجاجات بلاستيكية يسيل إليها، وهتفت الممرضة: لاتقنط.. لقد ثبتوا ستة عشرة قطعة معدنية في مفصلك.. بنجاح.. عندما تريد شيئاً اضغط الزر الأحمر.. سأتصل لك بالمغربي.. إلى اللقاء. ولم أجب بشيء كنت أنتظر أن يكف رأسي عن الدوران، ولم يحدث هذا إلا عند الظهر وبعد أن تناولت طعامي، وجلبت لي الممرضة كرسي متحرك، ونقلتني مع الأنابيب والزجاجات إلى المرحاض، وند عني بصعوبة بضع قطرات من البول، ولم أستطع التغوط، وأعادتني إلى السرير، مكبلاً بالأنابيب والزجاجات في يدي اليسرى وبإبرة وأنابيب تصل إلى كيس من المصل في اليد الثانية، وظللت على هذا النحو حتى المساء، لقد شعرت بالأسى إلى درجة أحسست بها أن العالم كله يبكي، وكان بجانبي ألمانيان نجوا من حادث وتماثلا للشفاء، مال أحدهما للآخر أنظر كم بشرته شديدة السمرة، وزادا من كربي، كان أكثر ما آلمني فقدان الحرية، وأكثر مافكرت به العودة إلى الجزائر بأسرع من الريح.

ولكن الريح جرت غير ماتشتهي، ففي الصباح التالي أيقظني ضابط بملابس مدنية قائلاً وهو يُريني بطاقته: «كلمة واحدة.. أين الذهب؟» ورنا إلى ملامحي ليرى أثر السؤال، فتصنعت الإعياء وقلت «أي ذهب؟»، فأشار للبائعة أن تتقدم قائلاً «أهذا هو؟» فأجابت «نعم» ويبدو أنه أراد أن يبدأ

باستجوابي ولكن الطبيب منعه، فاكتفى بأخذ بصمات أصابعي والتقط صورة لوجهي، وصورتين جانبيتين وكان الألمانيان ينظران إلى كل هذا بتشفي وكأن الذهب قد فُقد منهما، وغادر تاركاً شرطياً عند الباب، شعرت بعدها لأول مرة في حياتي كم كان من الأفضل لي لو أنني لم أولد، لم تكن حياتي سوى آلام وغيظ ومصاعب، كنت كلما رفعت رأسي لإنقاذ نفسي وأسرتي يلطمني القدر عليه ويعيدني إلى هاوية الفقراء، كلما شحذت ارادتي وتفوقت على من حولي ترفسني قوى عمياء إلى الحضيض. ولقد انهار الآن كل شيء حلمت به من جديد، لا وطن، لا أمل، لا حرية، لا شيء سوى نظرات الألمانيين الحمقاوين. هل أقوم وأذبحهما من الوريد إلى الوريد ثم انتحر؟ ولتتسولي يا والدتي على أبواب الأغنياء، ولتتعرين ياأخواتي الحبيبات أمام الذئاب المسعورة لقد ضاع كل شيء، لقد فر ابن الزانية بالذهب، ولن يظهر بعد الآن ياإلهي إنني اختنق، ولكن الطبيب الوديع الباسم زارني بعد لحظات وسألني كيف الحال وكنت واجماً لدرجة أنني غير قادر أن أنطق بشيء، فقال أنني تحسنت وبإمكاني السير على قدمي فشكرته على رقته متسائلاً كيف كان سيغدوا العالم لو نطق الجميع بتلك العذوبة.

وفشلت من جديد في التغوط، ورفرفت فوق سريري الأشباح، ووقفت مئات الغربان على الشرفة، متراصة غاضبة مسعورة، تنعق في وجهي كأنما تقول أنني داعر مجرم هالك، وتطاول عنكبوت ضخم على الزجاج، وأخذ يتكاثف حتى حجبت خيوطه الغربان، ثم تسربت من النافذة وأخذت تمتد وتمتد، حتى لامست السرير وقبضت على كفي، فاستيقظت محزوناً لاهثاً. وكان في الغرفة كاهن المشفى، يواسي الألمانيين، ويسألهما بتودد عن الحادث الأليم، نحيل، ضعيف البصر، عجوز، يكاد لايرى،

يتـدلـى إلـى صدره صليب فضي كبيـر، ووقف أمـام سريـري، وسألني والابتسـامـة على شفتيه عن صحتي، فأشحت بوجهي عنه، فقال بمودة أكثر «لاتزال مكدوداً.. ليبـاركك الله» ولما لم أجب أخبرني أن كنيسة المشفى تقـع في الطـابق الأول وأردف «هـل أنت كاثـوليكي أم بروتستـانتي؟» وضج الألمانيان من الضحك، وغرقت في الكرب..

وحين غادر الحجـرة لمحت الشـرطي جالسـاً عنـد البـاب يطـالـع صحيفـة. ودخلت ممـرضـة وقـامت بقيـاس ضغطي ودرجـة حرارتي وقالت مبتسمـة «كـل شيء تمـام». ودخلت أخـرى تحمـل وجبـة الظهيـرة تبعهـا المغربي في غفلة عن الشرطي، وصحت في لهفة:

- حسناً... تعال أجلس.

وأشرت إلى حافة السرير، وأشرق وجهي بصورة أثارت انتباه الألمانيين.

- استمع، أجلب لي زجاجة مخدر من التي تُبخ في الأنف.. شديدة التركيز.

- مالذي يجري؟

- لا وقت.. لا وقت، لولمحـك الشـرطي لطـردك.. استمـع جيداً موعد العشاء في السادسة.. ولن يسمح لك بالدخول بالتأكيد..

وغادر الحجرة أحد الألمانيين، لقد أحس بأننا نتحدث عن الذهب وأردفت:

- استمع موعد العشاء في السادسة.. ضع الزجاجة في الطبق الذي يعلوه الغطـاء.. ان رقمي مسجـل على بطـاقـة الصينية.. انظر.. غرفة ٥٠١ السرير ٣ وأشرت إلى صينية الطعام.. وحاول التكلم فقاطعته:

- عربة الطعام تظل في الممر مدة طويلة قبلما تفرغ الممرضة من توزيعها.

- ثمنها مائتي فلورون.

- لا بأس.

- أريد ثمنها الآن.

- اذهب إلى ديانا المغربية وستعطيك.

ودخل الشرطي قائلاً للمغربي:

- ليست مسموحة الزيارات.

فقال وهو ينهض:

- لا تقلق... سأفعل.

- يجب أن تكون هنا قبل السادسة.. سيأتي التحري لاستجوابي غداً.

- سأسابق الريح.

كانت الفكرة قد ومضت في رأسي حالما رأيت بائع المخدرات، وتبع عقلي المجهـد بارقـة الأمل، وتلفظ فمي بتركيز شديد، ثم أسندت رأسي على الـوسـادة مكـدوداً، وفي السابعة مساء كان الألمانيان نائمين، ارتديت ملابسي الممـزقـة، ووضعت زجـاجتي الـدمـاء في جيبي، ثم اقتـربت من المـدخـل وفي يدي أنبـوبـة المخـدر، وفتحتـه، فوجدت الشرطي قد أُبدل وحلَّت مكـانـه شرطيـة على جانبها الأيمن مسدس، وفي يدها عصا مطاطية سوداء تعبث بهـا، وتصنعت الإنهيـار قائـلاً أن باب المـرحـاض لايُفتـح، فدخلت معي ووضعت يدهـا على المقبض فأفـرغت نصف الأنبـوبـة في أنفها، وشعرت بالشفقة وهي تتلوى خائرة وتسقط عند قدمي، كان في عينيها بريق رغبـة حقيقيـة في مساعدتي وكانت جميلة فاتنة في وجهها أنوثة وبسالة في آن واحد.

أغلقت البـاب ورائي وهبطت المصعـد وأنـا أسنـد يدي المغطـاة بالجبس الثقيـل بكفي الأيمن، وحين صرت وراء الأبـواب تملكني الخور،

اكتشفت أنني لازلت غير قادر على السير، وخشيت أن تطوف سيارات الشرطة طرق المشفى، فدخلت حديقة ضخمة وضعت بين الأشجار والسواقي وتهاويت على مقعد قرب قناة يسبح البط على مياهها، وبذلت قصارى جهدي أن أمنع نفسي من الاغماء، أرحت رأسي على مؤخرة المقعد، ونظرت إلى الساقية الجارية وإلى الأشجار، ولأول مرة أدركت أن الربيع قد عاد، شعرت بالنسائم وسمعت زقزقة البلابل أحسست لوهلة أنني بالجنة، وتساءلت كيف لم ألحظ هذا الجمال من قبل، وبما كنت مشغولاً، لقد أضاعت أعمالي انسانيتي، من قال لي ذات يوم أن اللص يتحول إلى زاحفة؟ انظر أيها الشقي كم هي بديعة الحياة، انظر كيف تنساب الأمواج والريح والبط، أنظر إلى الأعشاب والسماء وهدوء أوراق الشجر، من المحير أن مثل هذا المكان متروك، مهجور، لا أحد يتجول به، والناس يتخبطون في المدينة مستعبدين أرواحهم من أجل الزيف والمال، هذا المكان هو الحقيقة فلماذا هو منسي إلى هذا الحد؟

كنت أحس أنني غدوت رقيقاً كفتاة، كانت نفسي واهنة واهنة، عزفت لها الطبيعة سيمفونية القمر والفضيلة والأزهار، وكما تنصت الأفعى الضارية لشبابة راعي وتفقد وحشيتها هكذا أزيح عن نفسي رداءها الهمجي، وسبحت أفكاري مخملية ضائعة بجانب البط العائم، وغمرتني ذكريات وذكريات، لاح لي ستيتو مراهقاً صغيراً في مدرسة، لم تصحبه في يوم من الأيام سوى السعادة، ولم يظلله سوى الحب.

وارتعدت، انتفضت كقط شعر فجأة أنه أضاع مخالبه، وغدا مصيره الضياع، قفزت واقفاً ورحت أغذ السير، شعرت أن استغراقي أكثر لن يودي بي سوى إلى تسليم نفسي، وعدت أسند ذراعي بكفي وزجاجتي الدماء في جيبي، ورحت أقصد البوابة الأخرى والحديقة تمتد والسماء تزداد عتمة.

وغدت الريح باردة باردة وجسدي يرتعش، واجتاحتني البرداء فأخذت ارتجف، وأسناني تصطك، وتمددت عند سيقان الأشجار، على العشب البارد، وجعلت أردد: يا إلهي.. يا إلهي.. غريب أنا في هذه الدنيا.. جريح وضعيف.. لاتنسني يا إلهي. وكنت أرى الأشجار عملاقة شاهقة فوقي، وآخر ضياء الكون يتوارى ويتوارى. ولمحت كلباً صغيراً أبيض، كوم نفسه على مرمى حجر مني، والتقت عيناه بعيني، نظر إلي كأنه يعرفني، فقلت له ياأخي، ثم عاد وأخفى رأسه بين قائمتيه كأنه يحتمي من الريح.

ونهضت من جديد، ولاحت لي أنوار المدينة من بعيد، وصعدت إلى الترام وقصدت مبغى المغربية، فأودعتني في هذه الغرفة، وليس في عينيها شرارة واحدة من الشفقة. لم تنظر إلي في يوم من الأيام سوى كزبون يدفق الكثير من المال، في حين كنت دائم البحث عن سراب من الحب في أحضانها. كنت أشعر بحنين شديد إلى امرأة عربية ولوكانت أشلاء، إلى شعر أسود وعينين كالحتين، ولكنها لم تكن سوى حصالة بلا روح.

٥

مر اليوم الثالث ولم يستطع ستيتو أن يتغوط. كانت يده تؤلمه، وأنابيب الدماء تحيره، والدوار لايفارق رأسه، حين طلب من المغربي أن يدعوني. فعبرت الدهليز وما إن صرت في باحة المبغى، حتى طالعني المرحاض المكشوف، لقد جاء الخريف وهطلت الأمطار ثم تساقط الثلج وهبت رياح نيسان وظل المرحاض بدون باب، وصعدت إلى الحجرة التي يبيت فيها، ودهشت لمرأى الذئب الجريح المطرق، وقص علي وهو مستلقي كل شيء، وكان يحدق في السقف كأنه يعترف للآلهة. وطلب مني أن أحضر طبيباً عراقياً يعرفه، كان يبيعه بعض مسروقاته، فسألته لماذا لايتصل به بالهاتف أو يرسل إليه المغربي؟ فرد:

- إذا علم ما جرى قد لايأتي، والمغربي شكس مدبب الألفاظ لن يفلح في إقناعه، حاول أنت قبل أن أهلك.

إنني لأسيف أن أراك على هذه الحال.. جد أسيف ياستيتو.. أتراك شديد الندم الآن؟

فأجاب بصوت مفاجيء غريب:

- لا!.

وساد صمت من الدهشة والانتظار، كان لايزال مستلقياً معلقاً نظراته في السقف، ويده الثقيلة تقطر فيسيل الدم إلى الزجاجتين، وأكمل:

- كنت أقوم بذلك كمن يحك جلده، هل تستطيع أن تسأله أأنت نادم على ذلك، إنه يحك جلده لأن جلده يحكه، وأنا كنت أقوم بذلك مدفوعاً بأسباب قدرية لا أفهمها. إنني إذ أفكر الآن بكل هذا يتراءى لي أنه ليس أنا من كان يسرق، كأن شبحاً ماكان يقوم بذلك؟ هل تصدق؟ إنني طالب ولست سارق.

لقد صدقت وانتهى الأمر، إن الأفعال الانعكاسية مسؤولة عن كل شيء يحدث في العالم، مسؤولة عن خلاصه وخرابه وقلت:

- ولكن لابد أن يكون لذلك جذور، هل حدث وسرقت شيئاً في الجزائر؟

- لا.. لم يحدث.. ولكنني ومنذ طفولتي كانت تستهويني الأفلام البوليسية، وكانت تلك الأفلام تلقي ظلالاً من التعاطف والبطولة على اللصوص. ولكن ليس ذلك ماكان يشعرني بالميل نحوهم، وإنما مجرد كونهم وحيدين وضالين والناس كلهم أعداء لهم، هل فهمت؟ كان مصيرهم يستدر شفقتي وهم مطاردون من الكلاب والشرطة والمسؤولين، كان يأسهم يدفعني إلى حد البكاء بعد أن يظهروا في بداية الفلم أذكياء مختلفين موهوبين.. أليست البطولة أن تكون وحيداً والناس كلهم أعداء؟.. ولكن لم أفكر أبداً أو أحلم بأن أكون صورة عنهم، خصوصاً وأن رعاية والدي حتى الثانوية العامة كانت تصونني عن ذلك.

وصمت لحظة كأنه يستريح، ثم أردف فجأة بذهول وشفتاه ترتجفان:

- رباه.. نعم لقد أقدمت على ذلك مرة.. وكنت في السابعة من العمر، يدفعني الشوق إلى مغامرة والرغبة في النقود وذلك قبل مشاهدتي أي فيلم

سينمـائي . . . يا إلهي . . وأغمض عينيـه بمـرارة وكأن نصـلاً يتـلامـع عندهما . . يا إلهي كم يبدو لي كل ذلك قضاء .

- اهدأ . . ما الذي يجعلك ترتعد؟ ما الذي سرقته؟

- لم أسرق شيئاً يذكر . . ولكنني أشعر أنه ليس ذنبي وإنما . . القدر . . وأنه كلما تقدم بي العمر، سأتردى في هاوية أكبر من الجريمة والرعب والقتل .

وقلت مخففاً :

- أقلع عن ذلك، ليس دقيقاً ماتقول .

فرد وكأنه عثر على الخلاص :

- نعم لم أعـد بحـاجـة إلى نقـود وسأعود إلى الجزائر، أنت تنصحني بهذا أليس كذلك؟

وتلفت إلي ، واحتـرت ماذا أقـول، كنت أعلم أن أفعـالـه الانعكاسية وردود الأفعـال والتي مصـدرهـا هنـاك ستعود إليه عاجلاً أم آجلاً . وبقاءه في أوروبا والتي أعتاد أن يكون فيها لصاً سيجعل من الغسير عليه أن يقلع عن ذلك .

ويبـدو أنـه لم يكن منتظـراً مني أيـة إجـابـة، فقد حزم أمره وعزم على العودة، لأنه سرعان ما غادرتني نظراته وعبرت خارج النافذة فشاهد المغربية ترافق رجلاً وتغلق وراءها باب الحجرة، فامتلأ بالغيظ ثم قال :

- يا إلهي كيف ترتعش عظـامي ويصـاب رأسي بالـدوار، عنـدمـا أرى ديانا والتي متيقن من كونهـا عاهـرة تصحب غيـري . . . عندما رأيتها لأول مرة، عندما رأيت ذلك الشعر الطويل الأسود، تعلقت نظراتي بها على الفور، أحبها قلبي ، وعندما علمت أن مؤخرتها كبيرة، زاد احترامي لها، وكلمتها عن الحب ولكنها كما ترى . . . . .

وأشار إلى النافذة، وكدت أتلوى من الضحك، وقلت ونظراتي تعبر الزجاج :

- ألا يوجد مكان أكثر أماناً من هذا المبغى؟ سيظن الطبيب بأنني أقوده إلى مصيدة وهو يأتي إلى هنا .

- هذه هي مهمتـك، وقـل له من جانبي أنني سأدفـع له المبلغ الذي يريده مقابل الاعتناء بي .

وهببت واقفاً :

- حسناً أين عنوان العيادة؟

- في الليتس پلين، اذهب إلى حبيب المصري وسيدلك، ليست بعيدة عن عمله .

ووطئت الشوارع من جديد، ضباب، سماء رمادية، أشجار خضراء، كآبة ورذاذ ووحدة، يالطريق الأشواك الذي عبره، أية غصة في قلبه؟ كم هو حزين ومكـروب؟ منهـك وشاذ وغريب، بين فكي كماشة رهيبة . من ينقذه الآن؟ كيف سيصـل إلى الجـزائـر؟ وتذكرت عبارة لبوذا من الخير يأتي الخير ومن الشـر يأتي الشـر . كان الضبـاب يملأ المـدينـة حتى يكـاد المرء لا يرى خمسة أمتار أمامه قصدت سيراً على الأقدام ساحة الليتس پلين، كنت خدراً متأمـلاً نفسي تنـزع إلى الهـدوء، تجنبت وسـط المدينة وضجيج الترامات، ورحت أغـذ السيـر من قنـاة إلى قناة ومن جسر إلى جسر، وتناهى إلي صوت جرس الكنيسـة عبـر الضبـاب، وعـاد التفكيـر في ستيتو يغشى مخيلتي كما يغرق الضباب القوارب والجسور والمياه . ودخلت مطعم اليهودي وطلبت أن أقـابـل الطبـاخ، ووقفت أنتظره خارج المدخل، وعندما شاهدني رحب بي بغبطة وشد على يدي بكل طاقته، وقال :

- أدخل سأقدم لك كأساً من الشاي .

- المعذرة، جئت أستعلم عن موقع عيادة الطبيب العراقي.

قال وهو يشير بيده:

- إنها هناك وراء ساقية العذاب.
- ساقية العذاب!
- آه.. أنا أسميتها كذلك.. كنت كلما خرجت من هذا الجحيم وجدت نفسي عند تلك المياه، فأقف أنظر إليها جارية بلا مبالاة، حتى أسميتها ساقية العذاب.

وأردف:

- حسناً أدخل.. أرجوك.
- أخاف أن أعطلك.
- على العكس.. إنني أحمد الله أنك أخرجتني من القبو.

انزوينا في ركن قرب منضدة ينعكس عليها ضوء الشارع الكئيب، ثم ذهب ليحضر لي مشروباً، بينما رحت أرنو من النافذة إلى الطقس الحزين، وعاد بأسرع مما توقعت، وبدا وكأنه يرغب أن يتكلم أي شيء ومع أي أحد، فبدأت:

- ما الجديد؟
- لا شيء، كما عهدتني، حسناً سأتزوج قريباً من هذه النادلة.
- هذا خبر سار، وستحصل على الجنسية الهولندية.. لاتبدو سعيداً جداً.

فقال متأففاً:

- إنني أدور كعجلة... الأسابيع تهرب مني كأنها ساعات.
- الأوتوماتيكية مرض العصر.
- أشعر أنني قد أضعت نفسي.

- عليك أن تجدها، يجب أن تحتفظ دائماً بغصن أخضر في داخلك، عسى طائراً يقف عليه.
- كيف؟
- لقد فقدت نفسك لأنك ظننت أن الأشياء الفانية هي الحقيقة، فبرمجت عقلك على المضي خلفها، وما عليك الآن سوى أن تضغط على المكابح لتوقف عجلات النفس، ثم تبدأ بالعودة إلى الوراء.
- نعم صرت أكره النقود، ولكن هل معنى ذلك أن أتوقف عن العمل؟
- لست أعني بالعودة إلى الوراء التقصير بالعمل وطعام وشراب الأسرة، وإنما عدم الشك ولو لحظة واحدة أن العمل وطعام وشراب الأسرة هو هدف الحياة.
- ما هو هدف الحياة إذن؟
- هدف الحياة هو أن تكون سعيداً، ولا يمكن أن تكون سعيداً سوى بعودة نفسك الأصيلة إلى ذاتها، ولا تعود هذه إلى طبيعتها سوى بالتفكير بالأشياء الخالدة العظيمة.

فنظر إلى الضباب كأنه لايفهم وقال:

- بكلمات بسيطة، وبهدوء، أين يقع خلاصي الآن؟
- من المعلوم أن سبب أتوماتيكية الانسان هي لهثه وراء الأشياء المادية، ففي حال العودة إلى الوراء سيحاول جمع الأشياء الروحية، أي العزيزة على القلب، والتي تجلب الهدوء والدفء إلى النفس. فكيف يتم ذلك؟ من المفروض أن الذي يلهث وراء المال يضع أولاً في الحصالة أو البنك قطعة واحدة مثلاً، ثم يبدأ بتوفير أخرى وراء أخرى، وهذا ماسنقوم به بالنسبة للأشياء الروحية المنسوجة من خيوط الفن، من خيوط الله، من خيوط المطلق، من أشعة التأمل والضمير والحب.

- اعطني مثالاً ينطبق علي.
- ليس ما أقوله صعباً، وينطبق على كل الناس، لنفرض مثلاً أنك سمعت معزوفة موسيقية أصيلة، فإنها ستترك أثراً عذباً في نفسك أليس كذلك؟ ثم بعد ذلك ستقرأ كتاباً وتتأمل لوحات في متحف ما، ثم تخرج لترنو إلى الطبيعة، وهكذا ستتجمع في داخلك بركة من العذوبة تورثك الهدوء والتأمل، وكلما اتسعت البحيرة هذه إزدادت السعادة التي لم يكن يشعر بها الرجل الأتوماتيكي لأنه آلة.
- لا أستطيع.. إنني مساق.
- لا تظن أنك مخير بأخذ الدواء، إن الاستمرار بالطريقة التي تعيش بها يجعل طريق العودة أطول وأصعب إلى أن يغدو في النهاية غير ممكن. لقد كان الكاثوليك في القرون الوسطى يعتقدون أن روح الانسان يمكن أن تموت وتصعد إلى جهنم لتتعذب هناك، على الرغم من أن الجسد لايزال يعيش على الأرض، والحقيقة أن جهنم على هذه الأرض والانسان يتعذب به عندما يخسر نفسه، فهل وصلت إلى هذه الحلقة المرعبة؟
- إن هذا صعب جداً.
- عندما تبدأ بالضغط على المكابح، عندما تقرر أنك لن تكون أتوماتيكياً بعد الآن، ستبدأ بتذكر نفسك في كل موقف، ستعي ماتقوم به عند كل خطوة، وبهذا تكون سعيداً في كل لحظة من الحياة.
- وأين يقع العمل بين كل هذا؟ إنه سيقوم بتهشيم حياتك الروحية تلك حتى لايبقى منها شيء.

كنت أعلم أنه لا حلاً مطلقياً الآن، إلا في مرحلة متقدمة جداً من حضارة ما، عندما يصبح عمل المرء هو هوايته وموهبته. ولكنني قلت:

- يجب أن يكون هناك قدر من التضحية، لن تقبض على الفضيلة والمال في آن واحد.

ومرت النادلة الشقراء بقربنا فقلت:

- هل اتفقتما على كل شيء؟
- نعم ومما اتفقنا عليه أن نعمل يوم الأحد أيضاً.

ووضع ذقنه في كفه وأسند مرفقه إلى المنضدة وحدق بي كأنه يقول «مارأيك الآن؟». واحتسيت ماتبقى من كأس الشاي قائلاً «إنها جميلة». وودعته وانصرفت. كنت أعلم أن العاديين كلهم أتوماتيكيون والموهوب فقط من يلحظ هذا، فإذا حاول التحرر أردوه في هاوية من السخرية والفاقة والنسيان. وعبرت جسر القناة الضيق، كانت المياه محجوبة لايرى منها شيء، وظهر الطابق الأخير فقط من مبنى عال كأنه يقف وحده في السماء. ودخلت العيادة، كان المكان فسيحاً مؤلفاً من غرف عديدة، يتنقل الطبيب بينها حيث يجد المريض بانتظاره، وكان هناك ممرضات كثيرات يطفن من غرفة إلى أخرى، لايكدن يتوقفن عن التصوير وفرز الأوراق وفك الجبس والتسجيل على الكمبيوتر، وكانت احداهن تجلس وراء كوة عند المدخل، أشارت لي إلى غرفة الانتظار عندما طلبت لقاء خاصاً مع الطبيب..

كان معظم المنتظرين قد تعرضوا لحادث ما، كان الجبس يلف احدى اليدين أو الرجلين أو الأصابع، وكان على المنضدة مجلات جنسية وأخرى عادية وصحف، وكانت الممرضة تصحبهم واحداً بعد الآخر إلى غرف الطبيب أو الأشعة، كان العمل يمضي كانتظام دقات الساعة، ولكن كم كان ينعكس مبهظاً على الوجوه.

ولم يهدأ العراقي، ولا الممرضات الشقراوات، ظل يدخل غرفة فلا يمكث دقيقتين حتى يغادرها إلى الثانية، وظللن يسرعن بملابسهن البيضاء

من زاويـة إلى أخـرى، وحانت مني التفاتة إلى المدخل وقرأت على الزجاج أوقـات الـدوام، إنهم يعملون من الثـامنة حتى السادسة، أي بشكل حقيقي حتى السابعة، يستريحون في الظهيرة ساعتين ولكن أي هدوء للروح يمكن أن تجلب هاتـان السـاعتـان وراء مقـود السيـارة وإلى مائدة الطعام؟ جعلت أحـدث نفسي وأنـا أنتظـر الطبيب ينتهي من الحـاضرين: وهكذا بعد تناول العشـاء تكـون الثامنة قد حلت، فماذا تبقى من اليوم؟ ثلاث ساعات، وماذا بقي من العمر؟ لاشيء سوى السراب، وذلك في أعلى طابق للحضارة في العالم.

كم آلمني في رحلتي إلى المـدينـة البـرجوازية الأنيقة تلك كيف يتحول المـال من وسيلة للحيـاة إلى غايـة لهـا؟ فيجعـل الـروح مسجـونـة مقيدة، وتسـاءلت وهم يجيئـون أمـامي ويذهبون، أتراهم يعبرون عن انسانيتهم في العمـل أم يتخلون عن ذاتهم فيـه؟ وقلت لامفـر، لامفـر، لايزال العمل في وضع لايستطيع معه تربية الانسان كإنسان.

وتنـاهى المسـاء، وازداد الضبـاب حلكـة في الخارج، ولم ينبق أحد غيري، وعندما رآني، قال:

- أنت من قبل ستيتو؟
- نعم.
- حسناً.. لا وقت.. سنتكلم في الطريق.. انتظر...

يالللصـرامـة بعد أن استخدم روحه حتى الانهاك، يالاقتضاب الذي لايـدل سوى على رغبتـه بأن يدعـه الآخـرون وشأنـه لكي يتمدد أمام التلفاز بالطول وبالعرض وبفظاظة.

وعاد بعد أن أبدل ملابسه البيضاء قائلاً:

- هيا تعال.

مضينـا إلى السيـارة، وفتح لي الباب الأمامي، وانتظرت حتى دار إلى الجهة الأخرى فدخلنا سوية وقال وهو يدير المحرك:

- حسناً.. أرني ماذا أرسل معك؟

وانطلق باتجاه ساحة الدام، وشرحت له كل شيء بإختصار وتوسل يثيـر شفقـة اليهـود، ونظرت إليه بطرف عيني، ولم أجسر أن أحدق به، كنت أحس أن شيئاً في داخله قد انكسر، وغاصت الكلمات في حلقي، أصبحت تعابيره معتمة صامتة لا تبوح بشيء، وقلت بصوت متهدج:

- لقد وعد بدفع كل شيء مهما كان.

كان من الطـريق قد ضاع نصفـه، وكـان الضبـاب يمنعه من رؤية أي شيء بوضوح، وقال وهو يضيء النور القوي:

- هيـا.. دلني على الطريق... وسأعود غداً في الواحدة.. لاوقت لدي الآن.. علي أن أتردد على منازل ثلاثة مصابين.

دوامة من المال والتعب.. ما نهاية كل هذا.. وقلت:

- لا أدري كيف أشكرك، لاشك أن عملك كثير.
- لقد صار على الانسان أن يعمل بعرق جبينه مذ حكم عليه بسبب خطيئته الأولى.

فقلت وأنا أشير إلى الطريق:

- ولكن هذا الجهد يجعل المرء يهمل الجانب الروحي للحياة.
- إن لي هدفاً، وعلي أن أحققه.

من جديد هدف... وتجرأت وقلت:

- ترى ماهو؟
- لقد بدأت بمشروع مستشفى.. وسأبيع العيادة قريباً.

مزيد من الجهد، مزيد من الصبر، مزيد من التقنين، مزيد من البعد

عن النفس والحب والمشاعر النبيلة، وتذكرت مقولة لماركس: بقدر مايصبح الانسان أكثر فقراً كإنسان، بقدر ماتزداد حاجته إلى المال الذي يمكّنه من السيطرة على جوهره المنخلع.

ونظر إلي كأنه ينتظر رأيي بمشروعه الجديد فقلت:

- إن مطاردة الربح على هذا النحو توقع المرء في فخ الأوتوماتيكية.

فقال بحنق:

- لولم أعمل لماذا فعلت؟.. إنني سأكون في جحيم.

نعم، حتى باسكال كان يعتقد أن العمل ليس إلا ليصرف نظر المرء عن بؤس الوجود، وأردف:

- إذا توقفت عن العمل أسبوعاً فقدت زبائني.. ومخططي سيضيع.

وطوت السيارة الطريق بسرعة، وعدنا ثانية إلى الكلام، ولايمكن ذكر ماكان يقول، كانت أجوبته قصيرة كأنه ليس راغباً أو معتاداً أو بشكل ما قادراً على تنسيق إجابته لاطالتها وجعلها ممتعة صادرة من النفس. السيارة تجري والروح هي الأخرى تحولت إلى عجلات تنهب الحياة وتحول العمر كله إلى دقيقة.

أشرت له إلى المنزل، وأوصلني إلى محطة الترام، فصعدت وأنا أتذكر كلاماً قديماً لنيتشه: «ثمة وحشية مقتبسة من الهنود الحمر تسم الطريقة التي يسعى بها الأميركان نحو المال: أما عجلة العمل، التي لاتترك مجالاً لالتقاط الأنفاس - وهي خطيئة خاصة بالعالم الجديد - فقد شرعت تصيب أوروبا القديمة بعدوى الوحشية، تنشر فوقها إنعداماً رهيباً للروح، فصار المرء يخجل الآن من الهدوء، كما يكاد التأمل الطويل يصيبه بوخز الضمير. وهويفكر، والساعة في يده، كيف يتناول طعام الظهر، وعينه مركزة على نشرة البورصة ويعيش المرء كشخص استطاع إهمال شيء ما على الدوام».

٦

فشل ستيتو من جديد في التغوط، وعندما جاء الطبيب في الظهيرة قام بفك الجبس وسحب الأنابيب وعندها رأى ستيتو لأول مرة يده، مخاطة بمقدار عشرين سنتمتراً عند المفصل الذي بدا بضعف حجمه الطبيعي. وأخبره الطبيب بأنه سيقوم بإزاحة الخيط الأسود بعد أسبوع، وأن الورم سيزول بعد ثلاثة شهور، وعندما حاول ستيتو ثني ذراعه وجد أنها لاتصعد أكثر من ثلاثين درجة، وأجابه الطبيب أنها بحاجة إلى ستة شهور من التمرين لكي تعود إلى طبيعتها، وصُعق عندما قال له أنه بحاجة إلى عملية أخرى بعد سنة لإزالة القطع المعدنية التي تثبت المفصل، وتهاوى رأسه على الوسادة من المرارة، ووعده العراقي بالعودة بعد أسبوع وأعطاه أقراصاً ملينة وأخرى مسكنة للألم، وودعنا وانصرف.

وظل ستيتو يطيل التحديق بمفصله الهائل، وبالخيط الذي يهتك اللحم، كأنما هو مغروز في قماش. ثم قال «لامفر.. لامفر من العودة». وأخبرني أن محمد اللبناني يتناول العشاء كل يوم في مطعم «ألف ليلة وليلة»، حيث يكون مزاجه في أفضل حالاته بين أصدقائه اللبنانيين. وأردف «لقد زارني المغربي في الصباح واتفقنا أن تلتقيا به هذا المساء لتقنعاه بأن يقوم بتهريبي إلى بولونيا».

- بولونيا!.
- أجل، هذا هو السبيل الوحيد للفلات من أوروبا الغربية إلى الجزائر.
- وكيف ستغادر المطار وليس لديك إقامة في بولونيا أو تأشيرة دخول؟
- لن يكون صعباً الآن دفع رشوة ما بعد انكسار النظم الحديدية الشيوعية.
- هل ستقوم بكل ذلك وأنت على هذه الحال؟
- ليس الآن.. ولكن يجب إيجاد المهرب أولاً.. لم يسبق لمحمد أن قام بتهريب رجل مطلوب.

وأحس بالألم يقرصه، فمد يده إلى حبوب المسكن، وجلبت له كأساً من الماء، وجلست قربه، إنني لا أذكر أنني شعرت بالشفقة في حياتي مثلما حدث في تلك الأيام وقلت:

- حسناً.. أين يقع المطعم؟
- مطعم التركي.. عند الجسر الكبير.. أيوجد عربي لايعرف أين؟
- آه.. نعم لقد تذكرت.
- ذكّره كم من الليالي سهرت قربه واعتنيت به.

وأردف:

- قل له بعد انهيار سور برلين لم يعد الطريق صعباً.

وعصفت الريح وراء النافذة، كانت تئن بشكل موصول منذ الصباح عاتية متمردة، وكان ستيتوينظر إلى يده التي غدت حرة بشحوب، كم آلمه أنه لايزال بحاجة إلى عملية ثانية، كان حزن الروح أشد مرارة من ألم الجسد، هل يكتب لي الخلاص؟ راحت عيناه تتساءلان؟ هل ضاع كل شيء؟ والتمع بهما شريط حياته منذ البداية، تذكر كم من الكتب قرأ، كم مكتبته ممتلئة بالكتب الدراسية والشطرنجية، كم سار في دروب الأفكار والقداسة والكفاح. إنه يذكر كيف حشد ارادته وحكمته وعطفه على أخواته

ورحل، فكيف تردى في هذا السرير؟ ذكر رحلته الرهيبة بكل تفاصيلها، وكيف بنى نظاماً عقلانياً ليهدىء ضميره.. الرحلة انتهت الآن.. الأيام الأخيرة.. هل ينجو؟ إن عقله وإرادته يجأران يأمران الجسد بالعودة إلى وضعه الطبيعي، وعيناه يائستان كأنهما تعدان الخالق بأنها أيام الشر الأخيرة.

تركته يسبح في الأفكار ومضيت إلى الطريق، كان أكثر شيء لايزال يعيه رغم ذبوله هو أن يظل شديداً، أن يصمد عقله أمام عقبات التكتيك الجديد. وطارت قبعتي وسبحت فوق إحدى القنوات، لشد ماكانت الريح ضارية ذلك اليوم، لقد هبت من المحيط الأطلسي، عبرت بريطانيا وتناهت إلى أمستردام عارمة رهيبة. ووقفت أنظر إلى القبعة من فوق الجسر، تنجرف مع تيار المياه، وتبسمت امرأة عجوز وهي ترنو إلى الحسرة على وجهي، وتشبثت بقضبان الجسر كأنها تخشى أن تطير. وقطعت سحابة النهار كالعادة دون أن يكلمني أحد، كنت أنظر إلى الوجوه وأهمس من يناديني؟ من يكلمني؟ وعاودني الشعور بأنني منبوذ مكروب، وعبرت الاشارة الحمراء فصاح بي أحدهم بقسوة: هناك أطفال يجب ألا يتعلموا الخطأ، وتألقت ملامحي فجأة، على الأقل هناك من كلمني، وابتسمت له بحبور فدُهش.

وازدادت الريح عنفاً في المساء، أسالت من عيني الدموع فوصلت إلى المطعم كالباكي، وكان عربٌ كثيرون متحلقين حول منضدة، أمام لوحة شهرزاد، وكان محمد يجلس بينهم كالمنسي يغشى وجهه ذبول غريب، إنني لا أذكر أنني رأيته يوماً في مثل هذا القرف والبؤس. وإلى جانبه جلس المغربي يلف سيجاره من التبغ واضعاً بينه قطع صغيرة من الحشيش، جلست قربه كالمختفي.. لا أود أحداً أن يكلمني، وشعرت برجفة في صوتي وأنا ألقي تحية على الوجوه الغريبة.

كان معظم الجالسين من اللبنانيين، بينهم مغربيان ومصري، وكان الجميع يحتسون الجعة، تدور بينهم نقاشات جانبية وكلام كثير، وكانوا يرددون بمناسبة وبغير مناسبة أن الهولنديات ليسوا سوى عاهرات وكانت عينا شهرزاد تقولان أن العرب لايرون في العهر فظاعته إلا عندما يتمثل في جسد امرأة*. . . . .

كان ثمة هولنديتان تجلسان بجانب تمثال ابن سينا تتناولان الطعام وتضحكان باستمرار فتُسمعان الصالة كلها المليئة بالأتراك والتركيات، وجلست فتاة مصرية خجولة العينين ذات شعر سابل طويل وحيدة قرب الفرن القرميدي وأجلت النظر بينها وبين الهولنديتين وتذكرت كلاماً لتوفيق الحكيم «إن المصرية أمهر امرأة تدرك بالغريزة ما في النظرة الواحدة من وقع وتأثير! . . . لذا هي لاتنظر إلى محادثها كثيراً كما تفعل الفرنجية الجريئة النزقة، بل تحتفظ بنظراتها وتحفظها بين أهدابها المرخاة، كما يحفظ السيف في الغمد، إلى أن تحين الساعة المطلوبة فترفع رأسها وترشق نظرة واحدة. . . تكون هي كل شيء».

وقلت للمغربي وكان لايزال ينثر الحشيش في اللفافة:

- ألم تتعظ من حادثة ستيتو؟

فرد بغضب:

- أتظن أن ستيتو وقع عن الدراجة لأنه كان يسرق؟ قد يذهب المرء إلى الحج ويموت هناك.

وأشاح بوجهه عني مغتاظاً، وكان المصري يقول وكان له عشرون عاماً في هولندا:

---

* غادة السمان.

- مئات الأصناف من اللحوم، مئات الأنواع من الجبن، مئات الأشكال من الخبز والخمور والتبغ ومع ذلك تجد نفسك دائماً كئيباً مريضاً زاهداً.

فأجاباه المغربيان بصوت واحد:

- لماذا لاتعود إذن؟

- الأفضل البقاء هنا من أجل مستقبل الأولاد، لو كنت وحدي لعدت. ومع ذلك كيف أجعل أبنائي ليسوا مسلمين بالإسم وإنما يقبلون على الإسلام كما أنا أحببته من أصعب الأشياء التي أواجهها هنا. وقالت شهرزاد «من لايملك وطناً لايملك شيئاً أبداً». وكان أحد اللبنانيين يحاور جاره بقنوط:

- صحيح أنني أربح كثيراً أحياناً، ولكن لا يمكنني تحديد كم أربح في الشهر خصوصاً في الشتاء، حركة بيع وشراء السيارات تتوقف تقريباً.

فأجابه:

- ربما تستطيع تحديد ما تربحه في السنة.

- أيضاً لا أستطيع، تأمل منذ شهران اشتريت سيارة حديثة الطراز شبه محطمة بثمن بخس وبقيت أسبوعاً أصلحها وأعيد طلائها ثم ربحت ثلاثة آلاف فلورون، وكدت أجن من الغبطة. ومن يومها حتى الآن أبحث وأبحث ولم أربح شيئاً.

- ألهذا أنت حزين الآن، تأمل خليل منذ خمس سنوات هنا وليس معه فلورونا واحداً ومع ذلك فهو راضٍ.

فرد خليل:

- «من ليس معه نقود لا أحد يسرقها، من ليس لديه بيت لايحترق، من ليس عنده زوجة لاتخونه»*.

---

* مثل روسي.

وقال لبناني خامس وهو يحتسي الجعة في حديث جانبي مع جاره :

- يا للريح هذا اليوم ياجورج! .
- نعم . إن القادم من شرق المتوسط لايتوقع أبداً أن يرى في حياته ريحاً عنيفة بهذا القدر، ألا يزال أخوك مصراً على المجيء؟
- أجل، وقد أرسلت له الدعوة .
- رغم قولك دائماً أنك في عذاب .
- ما فائدة النفس إذا لم تر الدنيا ياصديقي ، يجب أن يأتي ولنرى بعد ذلك إلى أي مدى يمكن أن يُشد قوس إرادته دون أن ينقطع ، تصور إلى الآن ينتظر والدته لكي تجلب له الفطور إلى السرير.
- ربما يذهب من هنا إلى السويد، يقال في البلاد الاسكندنافية لاتوجد عنصرية .
- أجل ولكن من يستطيع أن يحتمل البرد والجليد ورياح القطب .

ودخل شاب هولندي ، يجر كلباً صغيراً الصالة ، وجلس إلى جانب الفتاتين، وقفز الكلب إلى فخذ احداهما مهتاجاً، فأخذت تقبله وتعانقه وتمسد له جسده، كأنها تكافئه لتعرفه عليها، فقال المغربي بصوت عال :

- اللعنة عليهن، إنهن يفعلن كل شيء .

فرد جورج :

- لتفعل المرأة ما تريد بحيث لاتخسر نفسها، إن تربيتهن تختلف من شارع إلى شارع، ومن قرية إلى قرية، ومن مدينةإلى مدينة، ومن دولة إلى دولة، فليس من المنصف أن تضع قانوناً للجميع ، برأي لتفعل المرأة مايحلو لها بحيث لاتشعر أنها ضاعت أو فقدت نفسها إلى الأبد .

فرد المغربي :

- ولكنهن كثيراً مايتحدثن في الكنائس عن العفاف ويسوع وما ان يصادفن زنجياً حتى يفعلن المستحيل لكي يضاجعنه .

وصعد الدم إلى رأسه رغم الخدر الذي أصابه من السيجارة فوقف قائلاً لمحمد بصوت خفيض :

- لقد جئت مع السوري لنتحدث معك في موضوع خطير، لنتكفيء إلى الطاولة تلك .

وانزوينا نحن الثلاثة إلى منضدة بجوار لوحة التجار، لقد شرحنا له كل شيء فازداد تجهماً، وسرح في تفكير عميق حتى خلنا أنه قد نسي الأمر. كان الجميع واجمين، مرارة الغربة لاتفارق كلماتهم، كلهم راغبون في العودة، وكل الذين في الوطن راغبون في المجيء، وكانت شهرزاد تقول لقد أضعتم الحضارة والآن تزروكم الريح . ونطق اللبناني :

- سأقوم بتهريبه بشرط أن يظل بعيداً عني ثلاثين متراً، وأن يجلب المصحف معه ويحلف عليه أن يقول أنه لايعرفني إذا أُلقي القبض علينا .

واشتد عويل الريح في الخارج، وضاعت كلمات شهرزاد مع السيل المتدفق، ولم يبق سوى المرارة الطافحة من الوجوه .

الفصل الثالث

١

الخريف الماضي، ذات يوم، تسلقَتْ ورقة صفراء نافذتي وارتمت على السرير، فأمسكت بها وأجلت النظر في حوافها، ثم أعدتها إلى الريح.

أما اليوم وقد غمرت الخضرة شجرة النافذة تلك، وتزينت بالأوراق تلهو مع المطر والصيف والسحاب أتساءل ما معنى كل هذا؟!

لشد ماكانت حزينة خلال الشتاء، ترقبني ليل نهار، تصفعها الريح، ترتطم بالنافذة، تظهر شمس كاذبة بين شباكها، وكانت النجوم الماسية تبرز من أعماق الليل بين أغصانها العارية حالما أضع رأسي على الوسادة.

كانت شجرة الزمان تلك تقول لي أن الوقت يمضي وأنني لا أفعل شيئاً، تجعلني أتساءل كل يوم هل أرحل معهما إلى بولونيا؟

انقضى شهران، وكان يوم الاحتفال بالملكة أكثر أوقات أمستردام بهجة بعد عيد الفصح، كان حبيب المصري يمسك بزراع زوجته ويسيران سعيدين، وقد بدت خفيفة كطير، ضاحكة شقراء كفراشة، كانت المدينة أشبه بمصح هائل للأمراض العقلية، امتلأت بالبائعين والأقنعة والرقصات، احتفلت بمائة طريقة، وامتدت الحشود من ساحة الدام إلى الليتس پلين، قدموا من شتى القرى والمحافظات وغصت بهم القطارات، منذ التاسعة صباحاً كانوا يتوافدون والمدينة تمتلىء بالزحام وأكشاك الشواء وكؤوس

الجعة. وتقدمتُ منهما وكانا على جسر فوق قناة يصغيان إلى موسيقى الروك الهادرة القادمة من احتفال يجري فوق احدى الزوارق الضخمة الراسية. وقد بدا من بعيد، على احدى الشرفات، فتاة ترقص على الأنغام تثير دهشة المدعوين يرقبونها ضاحكين محتسين الجعة متبادلين كلمات الود والابتسامات فوق سطح الزورق الراسي وقلت مصافحاً:

- مبروك أولاً الزواج.

ثم أعدت مصافحتهما بمزاح:

- أحييكما ثانياً بعيد الملكة.

فكادت تنفجر من الضحك، وتابعنا المسير باتجاه الزورق، تحدثت معها بضع عبارات بالانكليزية، ثم انكفأت إليه متوقفين على مسافة خطوات من الحفل وقلت:

- اللعنة إلى الآن لم أتعلم كلمة هولندية واحدة.
- لاعليك.. في البداية يفعل الأجنبي المستحيل لكي يتعلم اللغة، وما إن يتقنها حتى لايجد مايقوله.

فقلت:

- لعلك تفكر بزيارة مصر الآن بعد أن حصلت على الإقامة.
- إنك لن تتصور مبلغ ما وصلت إليه من حنين إلى القاهرة.
- المسافر الحكيم لايحتقر بلاده أبداً*.
- ولكنها تمنعني تقول حتى لا أعود كما كنت بأخلاق الفلاحين.

ومر بجانبنا رف من الفتيات الجميلات المخضبات بالأصبغة وفي

---

* كارلوغولديني.

أيديهن علب كبيرة من الجعة، اجتزن فوق الجسر راقصات بعد أن تناهت إليهن صخب موسيقى الحفل.

فقلت مازحاً:

- انظر ما أكثرهن، ما الذي ستفعله في مصر؟
- ليس الشيء بكثرتهن بل بوقعهن في النفس، السعيد من يصل إلى أسمى درجة للحب.

أحسست بوخز الحقيقة والذكريات والخيبة ولكنني قلت:

- هناك بين المتوحشين ستحقق ذلك؟
- متوحشون ولكن في عينيهم حلم....

وأردف شاخصا إلى مياه القناة:

- حلم يقفز بك إلى المطلق نفسه.

واستشعرت زوجته الضجر، ولكننا نسينا ذلك وقلت:

- لايبدو أن الزواج جلب لك الكثير من السعادة.
- المشكلة أن كل الذي نتقاضاه يضيع على الأقساط، وهي لاتكف عن الشراء، تشتري وتشتري، ثم هناك أجرة البيت.... وهذا يجعلك عبداً دائماً للعمل والمال، لقد تشكل في داخلي بحيرة من الصديد بدلاً من العذوبة التي تحدثتَ عنها.. ومع ذلك تأتيك رسائل من مصر تقول أنك محسود من أصدقائك!.
- ألا تجلب لك المقتنيات السعادة؟
- استمع، لنفرض رجلاً خليجياً قدم واشترى كل شيء، هل يعني ذلك أنه قطف ثمار الحضارة، إن ثمار الحضارة هي الانسان نفسه أي السعادة وحرية العقل التي اكتسبها من تنشئة معينة.

فقلت:

- ومع ذلك حين نأتي نظن أننا نستطيع أن نفعل كل شيء.
- اذا كنت ذكياً تستطيع الحصول على المستحيل، ولكن مهما تكن ذكياً لايمكن أن تصل إلى قليل من هدوء الروح.

وتلفت حوله فلم يجد زوجته، وصُدع وهو يراها ترقص على سطح المركب وقد انضمت إلى الحفل، فسارع بالاستئذان، وصعد وراءها، بينما تابعت طريقي، ماراً تحت الشرفة التي ترقص عليها الفتاة وحيدة، ووصلت إلى ساحة الدام، وكان شاب روسي يقف وسطها ويغني بصوت عريض كأنه في أوبرا، وكان الناس يمرون به مزدرين، بعضهم يرمي له نقوداً اشفاقاً، وعلى مرمى حجر لمحت فتاة وشاباً مغربيين يتعانقان، وقد ظلت تلك الصورة بعد ذلك بذاكرتي مدة طويلة، إنني لم أشاهد في يوم من الأيام شاباً عربياً يقبل فتاة مثله سوداء الشعر في شارع، وقد لمحاني أرنو إليهما بعطف فابتسما.

وإلى حانة مقابل الخط الحديدي حيث وقفت أنتظر الترام، اندفع خمسة إيطاليين مخمورين يغنون بصوت واحد نشيداً غريباً يلقي انفعالاً وسحراً على الوجوه، ووقفوا أمام المشرب، وطلبوا خمسة كؤوس باردة من الجعة، واستمروا يصدحون ملوحين بأيديهم، وقد بهت الجالسون من مشهدهم، كنت أرقبهم من خلال الزجاج وقد خيل إلي أن المدينة قد ابتلعت مئات الأطنان من البيرة، لقد كانت الأرصفة ملآى بالعلب الفارغة، وفضلات آلاف أصناف العبث الرائجة، بحيث يصعب أن تطأ بقدمك دون أن ترتطم بشيء، وكنت أعلم أنه في الصباح سيزول هذا، وستبدو أمستردام وكأن شيئاً لم يحدث، وفجأة تناهت ضجة من الحانة فألقيت نظرة من خلال الزجاج، فوجدت الإيطاليين وقد أنزلوا سراويلهم وبدوا عراة أمام الجالسين الذين أخذوا يصخبون ويهتفون.

وصلت إلى القرية عند الغسق، وسرت تحت شجرات الخوخ، وتأملت البيوت القرميدية الأنيقة النائمة في هدوء الخضرة. لاشيء سوى عتمة المغيب، أشجار وأعشاب خضراء وأبقار، سرت بين المراعي وحيداً، سلكت دربا ضيقة بين حقلين، وعبق الهواء الساكن برائحة السماد، وعلى مبعدة رأيت مجموعة من الأشجار تلقي ظلالاً معتمة على الأرض، فاتجهت نحوها مجتازاً فوق السياج، ولكن ثوراً غريباً خرج من بين الأشجار، فعدت أدراجي، ورنوت إلى المدى وترددت في داخلي أغنية مهجرية وأنا ماض بين المزارع مالبثت أن لمست شفتي:

رجعت في المساء
كالقمر المهاجر
حقولك السماء
حصانك البيادر
أنا نسيت وجهي
تركته يسافر
سافرت البحار
لم تأخذ السفينة
وأنت كالنهار
تشرق في المدينة
الريح تبكي تبكي
في ساحاتها الحزينة.

٢

أسرعت بالخروج لأن الجدران الأربعة كادت تخنقني، كان الصباح محيراً، الشمس أكثر شبهاً بالجحيم، ولكن الغيوم ترتاد السماء وتحجبها بين حين وآخر، فيرتعش الجسد بتلك البرودة التي تأتي عادة في شهر نيسان.

سلكت الدرب إلى الترام، وتبدت الشمس بقوة فجأة فأسرعت إلى ظلال الأشجار، ووقفت أراقب الغيم حتى توارت مرة أخرى، فتابعت السير مردداً إلى بولندا.. إلى بولندا.. إن نفسي لن تقبل بحال من الأحوال عملاً شاقاً. كان الصيف قد غمر البساتين والتلال وكل شيء خضرة وثماراً، ولكن ما الفائدة ونفسي قاحلة أكثر من صحراء.

كان ذلك هو اليوم الذي قرر فيه كل من ستيتو ومحمد أن يلتقيا ليقطعا عهداً، ويتفقا على ساعة الرحيل، وكنت آمل بشدة أن يقبلاني. كانت البولونية قد حددت موعد حضوري لاستلام العمل في حزيران ذاك: وجعلت أردد في الترام الوداع ياهولندا.. الوداع.. إلى أرض جديدة.. إلى تجربة جديدة.

لقد أزاح الطبيب الخيط من يد ستيتو، ولم يبق سوى الانتظار ليعود مفصلة إلى حجمه الطبيعي، ويتمكن من ثني ذراعه، كان يتلهف دائماً لرؤيتي، كان ينوء تحت وطأة ماأصبح يكنه لذاته من الاحتقار، وكان بحاجة دائماً

لأن يعترف بهذا لأي كان، إن الجليد يذوب الآن وتتبدى له نفسه القديمة الصادقة تحت مزيج من النشاز والاهمال والفوضى. ويوماً بعد يوم بدأ يرق ويتجدد وتعود إليه روحه الصافية وذكريات المراهقة والوطن. لقد تسلل الدفء إلى المدينة والقرى والغابات، فأخذ يقصد متنكراً دغلاً قريباً يحاذي قناة رقراقة تنساب مياهها بين السهوب، يجلس وحيداً بين الأمواج والزهور متأملاً المدى يدرب يده بعناد وباستمرار ناظراً إليها كأنه يأمرها كأن لحدقتيه سلطة على الجسد. إنه متمسك الآن بالحياة أكثر من أي وقت مضى، إنه يحلم بوطنه وبدنيا جديدة خالية من الفاقة.

تذكر المرة الأولى التي امتدت بها يده وسرق شيئاً، كان في السابعة من العمر، هناك في الحي المهترىء ذي القناطر والأقبية والأزقة المليئة بالوحول، كان يتردد إلى الحانوت المجاور، حين ومضت في ذهنه أنه ليس من المستحيل إختطاف بضعة قروش من العلبة الفضية اللون التي بجانب البائع، كان ذلك سيجعله في بحبوحة مقارنة بالقرش الوحيد الذي يتقاضاه كل يوم من والده، وذات يوم غافل البائع بخفة غامضة كأنه تعلم ذلك قبل المهد، وانسحب تاركاً وراءه دليلاً واحداً، وجهاً مكتسياً بالحمرة.. أحس بمتعة المغامرة السوداء وابتهاج لرنين القروش التي في جيبه، ثم فجأة بهلع يقبض عليه، هلع من شيء مجهول، فردد: لن أكرر ذلك أبداً ياربي.. اغفر لي.

ظل مرتب الوالد يكفي حتى مماته، في ذلك الحي المليء بالخرائب والمساجد والأساطير، يكفي لدرجة جعلت من مراهقة ستيتو أسعد أيام حياته، كان يتسنى له الوقت ليكون أفضل طالب في المدرسة، وليعرف الحب في حي النسوة المتشحات بالسواد، تذكر فتاة صغيرة توقفه وتتصنع الحديث معه، وهو آت من المدرسة، كان يظن الجنة تحت أقدامه، ولكن

الفقر وسوء الطالع أضاعاها منه، ومع ذلك كم كان سعيداً في تلك السنوات، أين هي الآن؟ كيف ستنظر إليه عندما تراه يعود ثرياً، مايهم إن كانت تزوجت؟ إنها تخصه هو فقط.

ومع ذلك ظلت قنبلة الجنس المروعة مكبوتة في تلك الأمكنة التي يسفحها الغبار والقيظ والذباب، راح يتذكر هذا ذات يوم وهويقطع سهباً أخضر وبيده عصا يتكيء عليها، وقد لاحت له طاحونة أثرية من بعيد فأخذ يغذ السير إليها. «نعم حتى في الجامعة لم يتسنَ له مايسد الرمق» راح يردد. وفجأة روع وهو يتذكر أنه كان يسرق كتباً جامعية وأخرى شطرنجية، لقد نسي ذلك تماماً، نعم كان يعتبر أن مايسرقه ليس إلا كتباً ونادراً وهي ليست إلا لتزيذه تهذيباً فمن المحال إذن أن يصبح بسببها لصاً، كان الوالد قد توفي وترك له أربعة أخوات صغيرات، وبمعجزة استطاع الحصول على عمل في بنك. راح يحدق ذلك اليوم في الطاحونة ذاهلاً: نعم لقد نسيت هذا لأن الكتب كانت لتشقفني وتجعلني أسمى غافلاً عن يديَ اللتين أصبحتا طليقتين كأجنحة الحمام.

تذكر بعدها خسارته العمل، وازدياد الفاقة، وهروبه على ظهر سفينة إلى بحر الشمال، كانت دائماً أوروبا بالنسبة له كالحلم، وحيث ألقته السفينة هناك، على ساحل منسي كثير السحر، دخل الجنة كئيباً، شعر في اللحظات الأولى بحزن مقلق بهيج، نظر إلى مياه البحر وتساءل لماذا يبكي الانسان في مثل هذا المكان؟ لقد تمدد على الشاطيء بملابسه حتى لامست مياه البحر الباردة جسده، وغمرته ثم انحسرت ثم عادت لتغمره، فأحس بنشوة عميقة وخدر ومرارة لم يعرف مصدرها، وراح يسير على الشاطيء المقفر وهو مبتل، مفكراً متسائلاً لماذا يبكي الانسان في الوقت الذي من المفروض فيه أن يكون فرحاً؟ حتى وصل إلى نتيجة معقولة: إنه

في الماضي أشبه برجل اعتاد قدره البخيل، اعتادت نفسه الأيام الميتة الثقيلة حتى لم تعد تشعر أنها حية، وحين فجأة بُعثت في مثل هذا المكان السحري أحسَّت بالألم: إذن هناك جنة على الأرض! كم فاتني من الأيام؟

وجد أمستردام أقل من جنة بقليل، تخترقها أنهار تتقاطع وتتفرع إلى قنوات بحيث يصعب أن تجد بيتاً لايقع على ضفة ساقية أو نهر، كانت أغلب نزهاته عند العصر، يسير ويسير يبحث عن عمل، وينظر إلى ظلال الأشجار على السواقي، يصل إلى أذنه صوت أجراس الكنائس ورنين الساعات الضخمة في الأماكن الأثرية، فيسأل نفسه أهو في جنة أم في حلم؟ ويُسري الخدر في جسمه النسيم البارد. وتطرب أذنه لحفيف الأشجار فوق القنوات، لقد وصل إلى أعمق أعماق الغبطة عندما شاهد الحضارة مشرقة أمامه على هذا النحو، لدرجة أنه زهى بنفسه بدلاً من أن يحسدهم هم، كان يقول أن الأوروبي لايتسنى له أن يذهب إلى مكان ما في العالم ويشعر فجأة أنه خرج من الظلام إلى النور وتفتح له الكون مِلأه الإشراق مثلما يحدث معنا نحن القادمين من العالم الثالث، ردد: إن هذه المفاجأة السحرية تغني عن كل الرحيق المتنعمين به منذ وجدوا.

وبعدها أصبح مسرع الخطى، مسرع الكلمات، رديء التعبير، فتسائل هل أنا سعيد الآن؟ لقد خسرت الحلم ولم يبق سوى طعم الغربة المر، لشد ما كانت مريرة على تلك اليدين الخفيفتين لقد كان كل مخزن يدخله هلعاً غامضاً، ومصير، لقد كان كل صباح سماً ثقيلاً وفجيعة بريء مجبر على جريمة، كان رأسه جمجمة من الجحيم وعيناه دموعاً من التردد، ومعدته تقدح ناراً لأي طعام، كل صباح وكل مساء، كل يوم وكل سهاد.

وعند المغيب كان يتساءل دائماً وهو عائد إلى مبغى المغربية وفي يده

عصـاه : هل كتب لي أن أنجـو أخيـراً؟ ليت القـدر كتـاب من ورق لأقلب صفحـاتـه وأقـرأ قسمتي ، وتمـر بذاكـرتـه من جديـد فتـاتـه الصغيرة وأحلام مراهقته ، ويتبدى له العالم مكتملاً سعيداً لاينقصه سوى النقود ، فيجاهد في تدريب يده ، وعندما انتصف حزيران أصبح بإمكانه ثني ذراعه بمقدار تسعين درجة .

* * *

كانت السحب قد توارت عنـدمـا وصلت إلى ساحـة الـدام ، وأخذت الشمس تبصق اللهب على المدينة بشدة ، مضيت إلى حي المغربية وكنت طيلة الطريق أفكر برسائل البولونية وأتساءل هل أريد فعلاً العيش في بولندا؟ هل أنـا متأكـد أنني أريـد ذلك؟ وما إن وصلت حتى أتى ورائي محمد للتو ، وعلى وجهه تحد متعب غريب ، وفي عينيه نقمة وسأم وتطيُّرْ فبادره ستيتو :

- حسن جداً ، لقد وصلت باكراً .
- لقد أوصلني حبيب بسيارته .
- هل اشترى سيارة؟
- من آخر طراز ، وعليه أن يسدد أقساطاً لمدة خمس سنوات .
- لابد أنه يشعر بنفسه سلطاناً الآن .
- على العكس قال إن الغـربـة هي أن تمـوت بطـريقـة ممتعة مريحة كهذه فقلت لِمَ فقـال لأنـك تنقلب إلى آلـة بلا روح فقلت من يهتم بالروح في هذه الأيـام؟ فنظـر إلي بحنق من وراء المقـود وقال انتحر إذن ما الفرق أن تكـون آلـة تدور أو أخـرى متوقفة الاثنتان بلا حياة ، وجلب كل منا الكرب للآخر منذ الصباح .

- ما الذي يقلقه الآن؟
- إن سعيـداً يقضُ مضجعه ليـل نهـار ، أتـذكـر سعيـداً الـذي يعمل في بار اليهـودي ، إنـه يتعـالى لدرجـة العـدوانية على كل من يعملون هناك ، ان العنصـريـة والفـوقيـة موجـودتان حتى بين ضحايا العنصرية أنفسهم ، إن الأوروبيين يرحموننا أكثر بكثير مما نرحم أنفسنا .

فقلت :

- مابالهم لايتربون في بيئة نظيفة كهذه؟

فرد :

- لأنهم دائماً خارج نسيـج المجتمـع ، شريدون كالكلاب الضالة ، ولو أن أحـداً يحبنـا أو يرقبنـا كمـا لو كنـا في ديارنا ، لو كان أحد ينتظر منا الظهور بمظهـر لائق لكنـا راقبنـا أنفسنا وبذلنا جهداً لتحسين صورتنا كما يحدث فيما لو كنا في مجتمعاتنا .

كان محمـد قد بدأ يغلي لقـد تكـرر الحـديث الـذي دار في السيـارة وجعل دمه يفور ، إنه متعب متعب منذ زمن فقال ستيتو بهدوء :

- أعتقـد أن عدوى العنصـريـة قد أتت إلينا منهم ، عندما عشت في ألمانيا صرت ما إن أرى زنجياً حتى أشعر بالنفور فوراً وأنأى بوجهي عنه أو أذهب إلى الرصيف الآخر ، وماكنت لأفعل ذلك عندما كنت في الجزائر .

وقال محمد وهو يكبت ضيقه :

- ولكننا أكثر نهماً وجهلاً عندما يفترس الأغنياء منا الفقراء .

لقـد لحـظ ستيتـو الغضب الـذي بدأ يتملك محمـداً بلا مبـرر ، وبدا مفكـراً ، وظهـرت المغـربية فجأة من النافذة على مرأى منا تهز ردفيها متجهة نحو الدهليز المعتم ، فقال ستيتو وهو يفتل شاربه :

- لايمكن الإستهانة بمؤخرتها أبداً .

وضحكنا نحن الثلاثة، واشتد القيظ في الخارج، وبدت النوافذ المفتوحة تلفظ جمراً وقلت:

- ألم تسألها لماذا تمارس الدعارة؟

- قالت لي مرة أنها ليست عاهرة، وإنما تفعل ذلك من أجل المال وأضحكتني، فأردفتْ غاضبة أنها عاشت أربعة وعشرين عاماً في قبو مع تسعة إخوة، ولا تريد أن تتزوج لتمضي باقي حياتها تخدم على هذا النحو.

ووجد كل منا يحدق إليه فأكمل:

- منذ البداية لفت نظري مسحة حزينة تظلل تلك العينين السوداوين، كان أول عهدها ولم تكن واثقة من نفسها، لم تكن متأكدة من أنها يمكن أن تعجب الآخرين، كانت لي تلتقط زبوناً تقف وراء حاجز ماوتختلس النظر إليه طويلاً بعينين ناعستين وبخجل حتى لايكاد يظن أحد أنها مومس، وذات يوم لفتت انتباهي وكنت قد تعهرت طويلاً في سدوم وعمورة، ووقفت استرق النظر إليها بعيني محب وليس زبوناً ثم مضيت، ورحت أكرر ذلك يوماً بعد يوم حتى بلغت النظرات الحميمة بيننا حد الشغف رافضاً أن أقترب وأعرض نفسي، ثم سافرت بعدها إلى ألمانيا لمدة طويلة وعدت هائجاً مثل ثور، وتقدمت منها وبيدي مائة فلورون، هل تصدق أنها لم تنسني؟ هل تصدق كانت لاتزال تريد أن تحتفظ بعلاقتنا روحية فقط؟ وقالت وعيناها تنهربان من القطعة النقدية:

- لماذا لاتقبل إلى غيري؟

فقلت:

- لأنني أحبك أنت.

ومن بعدها بدأت تعاملني كالآخرين، كالآخرين تماماً، وإنني

لشديد الندم على ذلك، لقد جلبت لها من الهدايا وزجاجات العطر كثيراً، كثيراً جداً، ولكن موقفها لم يعد كماكان أبداً.

وقال محمد:

- دائماً يعود المرء من ألمانيا وقد أضاع نظرته الرومانتيكية للأمور إلى الأبد.

وقلت:

- أذكر ماخاطب جوته ذات يوم صديقه أكرمن: .إننا نحن الألمان صغار لايمتد عمرنا إلى أبعد من الأمس. حقيقة أننا أخذنا منذ قرن من الزمان نزرع الثقافة بنشاط كبير، ولكن ربما انقضت عدة قرون أخرى قبل أن يتغلغل في مواطنينا من الفكر ومن الثقافة الرفيعة العميمة ما يسمح بأن يقول القائلون عنهم، لقد مضى وقت طويل على العصر الذي كانوا فيه همجاً.

فقال ستيتو ساخراً:

- استمع إليه كيف يحفظ الكثير.

ولكن محمداً قال:

- يتعلم المرء العزيمة من الألمان وهذا ليس بقليل.

وتعكر لون السماء، وسُمع دوي الرعد من بعيد، فقال محمد وهو ينظر من النافذة:

- الأفضل أن يستمر الجو حاراً على أن تكون رحلتنا تحت الأمطار.

- هل سنعبر الحدود في الليل؟

- البولونية فقط.

- غداً ننطلق؟

- أجل.

- لم نتكلم بعد عن النقود.
- خمسة آلاف.

وامتقع وجه ستيتو:

- خمسة آلاف فلورون؟ . . إن الوصول إلى بولونيا من السهولة لدرجة أنني كدت أذهب وحدي.
- بالمناسبة لماذا لاتذهب بمفردك؟ إن قاطني النزل لشديدو الذهول من أنه لم يقبض عليك مرة واحدة. . إن النزل عرف لصوصاً رومانيين كثيرين، ولكنهم انتهوا في السجن أو في أوطانهم بعد فترة وجيزة. . . إن جرأتك نادرة فعلاً!

فأجاب ستيتو:

- أتدري جرأتي من أين؟ من شدة الخوف، نعم من شدة الخوف والشك المتناغمين مع فيض من الاحتياطات والحسابات الدقيقة، إنني لاأستعذب القيام بعمل جريء أبداً إلا بعد أن يبدولي يقيناً سهلاً أكثر بديهية من معرفتي عدد أصابعي، إنني في أمس الحاجة الآن إلى من يجعلني أجتاز الحدود كالريح، كما أنني بحاجة إلى شخص ثان أتكىء عليه إنني لا أزال أشعر بالدوار أحياناً ويدي تؤلمني عندما يطول المسير، ولن يكون بوسعك فعل ذلك طالما أنني سأتقدمك ثلاثين متراً.

فقلت على الفور:

- أنا أرافقك حتى وارسو.
- أنت؟

وقصصت حكاية البولونية منذ البداية مختتماً بأنني لاأملك أكثر من أسمالي وخمسين فلورونا، وبينما تبدى كل منهما مطرقاً مفكراً قصف

الرعد في الخارج مرة ثانية. ولم يُظهر محمد أنه يمانع وكان ستيتو متحمساً ولكنه قال:

- خمسة آلاف كثير جداً، أي مجهود يبذله المهرب؟

فرد محمد:

- نعم أي مجهود؟ هل تعرف مامعنى أن يرتعد المرء مذعوراً في شارع لأنه لايوجد مرحاضاً يذهب إليه أوسقفاً يأوي تحته؟ هل تعرف مامعنى أن يرتجف كل دقيقة لمرور سيارة. أوعبور شرطي أمامه؟ هل تعرف ما معنى أن تمطر فوقك رذاذاً وضياعاً ورياحاً وبرداً وأنت منزوٍ في ركن أسنانك تصطك ونفسك فريسة لتهاويل مروعة من المفاجآت منتظراً الليل أن يدبر؟ هذا مايعنيه أن تكون مهرباً.

فتكلم ستيتو بروية:

- ولكن الحدود الألمانية سهلة للغاية، إنك ماإن تسير بضعة أميال بعد مدينة «إنشخدي» حتى تصبح هناك.
- هناك واد علينا أن نهبطه ثم نصعد من الجهة الثانية بين الأشجار فنجد أنفسنا في الأراضي الألمانية، لقد عبرته العام الماضي في عيد الفصح، وقد دلني عليه شاب سوري عثرت عليه في دير للسريان السوريين يقع حول «إنشخدي» حيث نمت ليلتين تحت اسم بيير. ثم علينا الخوض في نهر لكي نجتاز الحدود البولونية وكل هذا سهل ولكن هل نسيت أنك مطلوب؟

وخفض ستيتو رأسه بألم إلى الأرض وقال بمرارة:

- أرى أنك لاتشفق علي أبداً.

بدت الخيبة على وجه محمد، إنه أيضاً لايريد أن يفتت أعصابه من أجل لاشيء، ساد صمت لبضع دقائق، كان المطر وحده يتكلم وراء

النوافذ، وصوب محمد متأثراً وجهه إلى الخارج ثم قال:

- لست مسؤولاً عن أقدار أحد.

فأجابه:

- حسناً، ولكن ليكن ماتقوله متناسباً مع مايأخذه مهربون آخرون.
- ولكنك مطلوب.

عاد الاثنين إلى الوجوم من جديد، فقلت:

- قل ثلاثة آلاف يامحمد.
- خمسة آلاف فلورون.
- هل تريدني أن أصل إلى الجزائر خال الوفاض؟
- أنا لا أستطيع العودة إلى بلدي مطلقاً، أنا في منفى رغم أن لبنان أجمل بلد في العالم.

ظل المطر يتساقط طويلاً فوق المبغى كأنه يغسل كل الآثام التي ارتكبت هناك. وقد تم الاتفاق على خمسة آلاف فلورون، وأخرج ستيتو مصحفاً وأقسم أنه لن يشي بأحد فيما لو افتضح أمره، وبتنا تلك الليلة في المبغى لكي يتسنى لنا الذهاب في الرابعة صباحاً معاً إلى القطار الذاهب إلى «إنشخدي» حيث نصل في المساء إلى الحدود البولونية، ولكن أحداً منا لم يغمض له جفن حتى ساعة متأخرة من الليل، فنهض ستيتو وأخرج القرآن وراح يتلو آيات كثيرة العذوبة، وترقرق الدمع في عيني محمد فنهض فجأةً وقال: لقد قبلت بثلاثة آلاف فلورون. وأطبق النعاس على جفوننا في الواحدة بينما المطر لايزال ينهمر وراء النوافذ ويضفي شجاً عميقاً على الليل.

٣

اختفى خضر إلى الأبد. وصفر قطار الرحيل، كان ستيتو يجلس بجوار النافذة ساهماً، وقد غرقت البيوت والمزارع والأشجار بالضباب والأمطار، يلقي على الأراضي الواطئة* النظرات الأخيرة. تغزو ذاكرته خواطر متقطعة لارابط لها، ورقة خريف ندية على صليب المقبرة، مطر مدرار فوق نهر الراين، تراتيل الأمواج على بحر الشمال، رجل يقرأ وحيداً قرب بحيرة ضائعة. وتذكر شارع سدوم وعمورة تحت الثلج وكيف تبدى مشهد الأجساد العارية وراء الزجاج خلال الندفات المتساقطة رومانسياً بديعاً. ولاح له وجهه القديم الجزائري، وعادت إلى ذاكرته الصبية الصغيرة الحنونة وتساءل لماذا تصبح المحبوبة غالية إلى هذا الحد عندما تغدو ذكرى؟

سار بنا القطار في العتمة، ثم انساب فوقه نور الفجر بعد قليل، مضى يصطدم بالريح ويزعق بالليل، مرت نصف ساعة وأمستردام غدت بعيدة، عندما تنبهت إلى أن أعصاب محمد ليس على مايرام، لقد عاد إليه تأزمه بسبب المبلغ الزهيد الذي تقاضاه دون أن ينبس ببنت شفة، عبر القطار قرب بحيرة الفجر، فبدت مياهها رصاصية بعيدة غارقة في ضباب كثيف مسحور.

---

* هولندا

تلاحق من نوافذ القطار مشاهد كثيرة يلفها ضباب الفجر، وانقطع المطر عن التهطال ثم عاد ليملأ زجاج النافذة، لقد بدأ مشهد القطار وهو يلتوي تحت البروق في صورة لم تخطر لي في أجمل أحلامي ترتطم به الرياح وتلوحه الزوابع.

وظللت صامتاً طيلة الوقت بينما قال ستيتو:

- أتراني أصل إلى الجزائر وأسناني كاملة؟

فرد محمد:

- نعم.. وستطل عليك برجالها الملتحين وغبارها وأسواقها الخيالية.
- ولكن كم ستبدو عزيزة تلامس الروح، سأسير وعند كل خطوة سأردد يا إلهي إنني في مدينتي.
- ستلفحك الأتربة ويدحمك المارة ويفاجئنك النسوة المتشحات بالسواد.
- كل ذلك مألوف وقديم، وسيبدو لي كقصة قرأتها في غابر الأزمان.
- سيطاردك الغبار أينما حللت وستلمح الطرق مفروشة بالحصى والأوراق، والأبنية أطلالاً من الجدران المهدمة.
- لم تكن سعادتي سوى حلم بين تلك الأنقاض، ماذا يريد العائد سوى وطنه، لاشيء، لقد اكتمل العالم.
- سينشر الغبار فوقك الضجر والخوف والكآبة.
- سيتراءى لي طيف السعادة عندما أعود يوماً بعد يوم إلى الضمير والشفقة والتواضع.
- ستجد معارفك وقد كبروا والشيب لفح رؤوسهم وشواربهم، ستجد وجوههم متعبة حزينة ومنكسرة، كأن شخصاً قد جلدهم جميعاً قبل أن تأتي.
- ولكن رؤية فتاة عرفتها في الماضي ستضيء كل المصابيح في داخلي،

ستشرق الشمس في الصباح ويسطع القمر في الليل وبينهما سيمر دهر من الحب والألم والضحك والذكريات، ستموج مشاعري بي فأدندن قصيدة في شارع، لن يختفي النهار ببلادة أتوماتيكية ويخلف وراءه شعوراً مريرا كئيباً بأن العمر يمضي بلا جدوى، سأكون انساناً لن أشعر أبداً أنني آلة أو منضدة أو دمية محشوة بالتبن.

- سيسفح الغبار كل شيء، وينذر مدينة الأوهام تلك بمزيد من الأطلال.
- إن روحي التي أجهدها البرد وغيم السنين الذي لانهاية له ستفهم سر القمر وشعاع الشمس، وستطرب لرؤية شرفة المحبوبة ومدرستها، سأسير في الشارع الذي أعطيتها به رسالتي الأولى، سأقول ماأسعدني، من أحبكِ مثلي؟ وصباح كل يوم وقبل أن أغادر بوابة المنزل سأتساءل تراني من أصادف هذا النهار.
- خذني معك.. رغم كل شيء!
- ستظل غريباً مالم تعد إلى لبنان.

وأردف:

- ولكن كيف سنعبر الوادي تحت هذا السيل؟

فنظر من النافذة وعادت إلى وجهه الكآبة، وبدا مفكراً ثم قال بقنوط:

- سننتظر في حانة حتى ينقطع المطر.

واقترب القطار الغريق من إنشخدي فكرر ستيتو السؤال:

- هل تظن فعلاً أنني سأصل إلى الجزائر؟

وأطرق محمد ثم قال بإقتضاب:

- أعتقد ذلك.

ولم يستطع ستيتو أن يهدأ، إن البداية تنذر بالشؤم، كان يريد أن ينطق أي شيء، إن الصمت يزيده توتراً فخاطبني:

- ألست نادماً على ترك الهولنديين الطيبين؟

- لا أظن أنني سأذكرهم بالخير. . لقد كنت بينهم دائماً معذباً. . أرقبهم من بعيد وحيداً.

ولم يلق بالاً على جوابي، بل أخذ ينظر حوله ومن النافذة راجفاً فصاح به محمد:

- كف عن التوتر، كل شيء سيكون على مايرام.

فنهض وصعد إلى الطابق الثاني وتمشى بين المسافرين وقد بدا له الجميع قانطين متشائمين وكأن العاصفة قد ذرت الكآبة في الوجوه، وأقبل على البار واحتسى كأساً من الجعة ثم هبط من جديد، وقال:

- لا أعتقد أن المطر سينقطع هذا اليوم!

- اهدأ. . لم يحدث أن قمت بتهريب أحد وقبض عليه.

وازداد توتراً وجعل يحدق من الزجاج المغرق متحاشياً النظر في عيني محمد، ولم أجد كلاماً ملائماً أقوله فلبثنا صامتين حتى وصل القطار إلى إنشخدي.

قادنا محمد إلى حافلة أخذتنا إلى القرية الهولندية الأخيرة، كانت البلدة مقفرة إلا من المطر، النوافذ مغلقة وأية حانة لم تفتح بعد، مشينا على الأرصفة الكئيبة، إلى كوخ مهجور بين الأشجار وقال محمد سننتظر هنا، ثم نهرع إلى الوادي بأقصى سرعة حالما ينحبس المطر.

كان بجانبنا بركة تلفها الأشجار، تسبح فيهاطيور غريبة تشبه البجع، وكان الحاجز الهولندي في أول الجسر الذي تعبر فوقه السيارات الوادي، وسرنا بين البساتين حتى حاذينا مشارف المنحدر، وأصبح رجال الدرك على مبعدة ميل واحد من أشجار البلوط والصفصاف، ولم يبق علينا سوى الهبوط بين الأشجار الكثيفة ثم صعود الطرف الآخر للوادي حتى نجد أنفسنا على

الأرض الألمانية، كان الرذاذ قد انقطع ولكن الريح ظلت تطوح بالسحب والأشجار وتنذر بالمطر، لاشيء أكثر وحشة من دوي الريح في الأشجار رددت في نفسي وقد بدأنا بالهبوط فكدنا نتدحرج كالحجارة.

كانت الأجمة شائكة كثيفة، وكان علينا السير طويلاً على الأشرطة المحروثة، بين صفوف الأشجار حتى نعثر على فجوة بينها ننفذ منها، وكنا نلقي بأنظارنا إلى السماء فنرى غيوماً كثيفة تسبح فوقنا، وامتلأت أحذيتنا بالوحل، وجرَّح الشوك ملابسنا، وكنا دائمي النظر إلى الشرق مرتعدين حيث الحاجز الألماني وكان محمد الوحيد المتأكد أن أحداً غير مهتم بنا، وازداد النبات الشوكي بين أقدامنا حتى أصبحنا نشعر به في جواربنا، وأشار لنا محمد إلى الفجوة الأخيرة حيث بدا المنحدر مفتوحاً أمامنا إلى أسفل الوادي.

تركْنا ستيتو يسبقنا مسافة طويلة ثم انحدرنا خلفه، وانسلت حية غريبة بين أقدامنا وغابت بين الأشجار، وبُهت محمد وامتلأ بالغيظ، وما إن تابعنا المسير خمس دقائق حتى صاح بصوت خطير:

- إنه هناك.

فوثبنا متلفتين إلى الشرق بحركة عنيفة فأضاف بكلنة مذعورة وقد شحب شحوباً مميتاً:

- إنه هناك. . . إنه يضربها!

وبدأ يرتجف ووجهه يعلوه الإصفرار ثم ألقى بنفسه على غصن مطرقاً إلى الأرض وزمجر:

- لا. . لا.

بأعلى صوته كأنه يتقيأ مئات من خلجات الذعر والكوابيس والأحزان فصرخت به يائساً:

- هذا كان عندما كنت صغيراً . . منذ زمن طويل .

- لا . . إنه يضربها الآن . . إنني أسمعه .

وقذفت الريح الصدى بعيداً في شتى الأرجاء ، فجعلت أبحث في جيوبه عن المخدر ، وجعلته يبتلع ثلاث حبات دون جدوى ، لقد سقط على الشوك وأخذ جسده يرتعش وصوته يجلجل بلا انقطاع فريسة يأس عنيف خانق ناجم عن مقاومته الطويلة للانهيار ، وأدرك ستيتو أنه هالك فأخذ يولي الأدبار منحدراً مطلقاً ساقيه للريح ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أبصرت الدرك الهولندي يلتف حوله والكلاب تنبح ، وكان محمد قد استفاق قليلاً ، فعدنا نصعد من جديد ، ومن فرط اضطرابنا شرع كل منا يركض في جانب ثم أضاعتنا الأشجار .

وجدت نفسي وحيداً مسرعاً محني الظهر تمزق الأشواك بنطالي ، صاعداً لاهثاً حتى يكاد وجيب قلبي أن يتوقف ، ودغدغتني حمى الذعر إن أحداً لم يلتفت وراءه وها أنا أضيع الطريق وصوت الكلاب يصم أذني ، وتدحرجت الحجارة تحت قدمي فسقطت مدمياً ذراعي وساقي وامتلأت ثيابي بالوحل فبدوت كأنني خارج من مستنقع ، وحاولت استراق النظر من بين الأشجار فلم ألمح أحداً ورائي ، وانسل الرذاذ من جديد . لم يسبق أن شعرت بالضياع مثلما حدث في تلك اللحظات ، لقد سدت الأشجار أمامي المنافذ في الوقت الذي يتعين علي الصعود بأسرع مايمكنني ، وأطارت الريح قبعتي فترنحت على أغصان الشجر ، وأغرق المطر شعري وكنت أردد يجب أن أنجو . يجب . . . كنت أعلم أن درك الحدود الآن وراء مناظيرهم والكلاب تتشمم الهواء ومع ذلك رددت يجب أن أختفي وأفر كما انسلت الحية بين أقدامنا ، ويجب قبل كل شيء أن أفكر وأهدأ وأحافظ على رباطة جأشي ، كنت من المنحدر قد قطعت ثلثيه ، وكان علي تسلق الثلث الأخير ،

كاد قلبي يتوقف تماماً يالشد ما ركضت أبحث عن فجوة بين الأشجار أنسل منها حتى إذا عثرت عليها ولجت مسرعاً ، كان الخوف هو الذي يزيد من تشنج قلبي ، هرولت طويلاً في الأراضي المحروثة والمطر يغسلني بلا توقف ، والغيوم تهبط كأنها تنحدر إلى الوادي . وحيداً بين الجروف كلما نظرت إلى المدى رأيت الأغصان تهتز ، الرياح تأتي من جميع الجهات والمطر يتساقط ثم ينقطع ثم يرذ من جديد ، كنت أهرب كأن للرياح عيوناً وأشعر بذعر من سطا للتو على بنك . انقطع نباح الكلاب حالما ارتقيت المنحدر ، وملأ المطر حذائي ، واندفعت بين البساتين بأقصى طاقتي وحين تراءى لي الكوخ المهجور من بعيد أحسست أنني لذت بالفرار .

٤

ظل المطر يتساقط أسبوعين متتالين، لم يعد خلالهما محمد إلى النزل، وكنت أتساءل أين عساه يكون؟ هل قبض عليه؟ وذات يوم وأنا أسير في شارع خطر ببالي أن يكون لجأ إلى الدير الذي تحدث عنه لسبب من الأسباب، وتساءلت هل أذهب إلى هناك وأفتش عنه؟ واختمرت الفكرة في ذهني بعد يومين، نعم يجب أن أذهب.

عندما وصلت كان الراهب ينطلق بالخرفان وعيناه معلقتان بالأفق، وسألته عن شاب لبناني يدعى بيير فقادني إلى حجرة رئيس الدير، حيث لبثت وحدي برهة قبل أن يأتي ويبادرني على الفور:

- هل أنت من ذويه؟
- أنا صديق له.. هل لي أن أقابله؟

فاطرق طويلاً إلى الأرض ثم قال:

- لا.. لقد انتحر.

وغامت الدنيا في وجهي، وقبل أن أفيق من الذهول ردد بلهجة سورية وهو يسحب بضعة أوراق من الخزانة:

- لقد أقام بيننا ثلاثة أيام، وفي المساء الثالث هبط علينا كالشبح، شاحباً غريباً، وكنا نتناول الطعام في الصالة ومد يده مودعاً كلاً منا قائلاً «لقد

أمضيت معكم وقتاً ممتعاً» وكنا نرد عليه رافقتك السلامة ونرجو له التوفيق. وعند العصر بعد ثلاث ساعات من هذا صعد خادم الدير ليرتب غرفته فوجده قد ابتلع أنبوبة كاملة من الحبوب المهدئة ومات.

وأردف مادا يده بالأوراق:

- ستفهم كل شيء بنفسك.. هذه كانت مذكراته.

ودخل الراهب وبيده صينية عليها كأس من القهوة وورقة مطوية وقالا بصوت واحد:

- اقرأ هذه بعد أن تتم المذكرات.

وخلفاني وحيداً، ومن الباب المفتوح رأيت الخرفان ترعى تحت المطر على السهب المبتل.

١٦ حزيران

سرت حائراً، حقيبتي على كتفي، وثيابي تلوحها الريح، حتى إذا تراءت لي القبب الأرثوذكسية، أحسست بهدوء عميق، كان الوقت ليلاً والدير مقفراً، وأمام المبنى الكبير للكنيسة، جرت مياه كالحة سُمع لها هدير صاخب في شتى غرف الدير، كانت قد غمرت المراعي التي سرحت فيها الأبقار الربيع الماضي، كم كان الدير زاهياً حينذاك، وكم عبقت به التراتيل وأشواق المحبين وضحكات الأطفال الذين تراءى لهم أنهم عادوا إلى وطنهم. واليوم وعيد الفصح قد توارى، بدت نوافذ الدير معتمة، الغرف خالية، وهدير المياه يُسري رجفة في الأوصال. في ذلك الليل الصاخب المليء بالريح عبرت البوابة منتشياً، لأنني في هذا الدير المنسي في برية شعرت أنني بعيداً عن مرجوحة الأشواك والذعر تلك، وعند حجرة الراهب الكبير وقفت خجولاً متردداً كانت الحقيبة لاتزال معلقة على كتفي، ورذاذ

المطر يبلل ثيابي، وكالعادة هممت بتقبيل يد الراهب العجوز وأنا أعلم أنه سيسحبها. إنه يكرر مثل هذا مع الجميع حتى يكاد يبدو كمسرحية، ولم أتحدث كثيراً، بدا ميالاً إلى المزاح والبشاشة ثم انصرفت بعد أن أوصى أحدهم بإطعامي ومرافقتي إلى إحدى الغرف، خرجنا شاكرين وسمعت من جديد صخب المياه، أودعت حقيبتي وتمشيت خارج الدير في الظلام وشعرت أنني وحيداً ومهجوراً، ماالذي جاء بي إلى هنا؟ أي شيطان ألقى بي في هذا الليل المرعب، إنبعثت في داخلي فجأة أسئلة قديمة مروعة، فعدت إلى الداخل، جلست وحيداً في غرفة الهاتف، وبدأت أفكر، أي نسق ستسير عليه حياتي بعد الآن؟ قفزت مذعوراً يا للسؤال الرهيب، كانت الحجرة باردة باردة ذات أرائك قديمة وستائر محزنة وصور غريبة أشبه بخيالات من الرعب، خرجت كأنني أفر من شيء عبرت حجرة الطعام متحاشياً الوجوه الغريبة وجلست مع راهب شاب ورجلين أمام فلم ديني يعرض على تلفاز صغير مقيت، كنت أستمع ولا أستمع، أرى ولا أرى، أفكر كيف ستجري أموري بعد الآن ولا أفكر، كانت الصالة باردة هي الأخرى، لوحاتها رهيبة كلحية الراهب، ولسبب مجهول جعلت أرتجف في مقعدي، اعترى نفسي هاجس لايمكن وصفه من الضحالة والخوف والانهيار، ماذا بعد الآن؟ ماذا؟ كان قد بقي قليل جداً لتبتلعني لجة الجنون، ودوى صوت الريح وهدير المياه وراء النوافذ فزاد من ذعري فأحسست أن موعد حبة المهدىء قد حان، كانت لحية الراهب وبرودة الصالة ومافيها من أشياء كئيبة قديمة، قد جعل الريح تهز الدير بأكمله وسقطت اللوحات عن الجدران، وتهاوت الحجرات، وسقط الجرس محدثاً دوياً رهيباً، وسبحت الصلبان فوق المياه واستحالت نفسي إلى رماد من الفوضى والأنين والعذاب، وأغمضت عيني . . . لقد انتهى كل شيء،

وسرى خدر المهدىء في جسدي وعادت الصور إلى الجدران، وعلق الصليب فوق القبة، وظل التلفاز يبث الفلم الديني والراهب غارقاً في لحيته وتأملاته. وصعدت إلى الغرفة وتبادلت الحديث مع شابين، ولايمكن ذكر كل ماقلناه ولكنني لأول مرة أرى شاباً بنقاء الروح التي تبدى عليها أحدهما. لقد كان يتعذب هو الآخر ولكنه متشبث برداء يسوع.

١٧ حزيران

عندما استيقظت كان أول شيء طرق أسماعي هدير المياه، وعاد الرعب يتملكني من جديد. أشباح الدير، برودة الغرف، وحشة المكان، وارتديت ملابسي ونظرت من النافذة: كانت وراء الدير تجري ساقية صاخبة عنيفة، وحوله بدا حقل وبضعة شجرات غريبة ودجاج وأوز وخرفان، ومن بعيد هضبة رمادية وشجيرات، وكان المطر لايزال يتساقط حين هبطت إلى الدور السفلي، ولم أطعم شيئاً، لأنني استيقظت متأخراً، فجلست أمام التلفاز متدثراً بمعطف، وجعلت أبحث عن مخرج. بدوت أكثر هدوءاً من البارحة ومع ذلك سرى برد عجيب في أوصالي.

تجولت في القرية بعد الظهر، كانت الغيوم متراشقة، مسرعة مسرعة، ووقفت وحيداً في مكان مقفر، حقول وريح وأشجار، لاشيء آخر كآبة وسحب تجري لاتبوح بأية أسرار، نباتات وحيدة وأبقار وإنسان، وغموض يلف كل شيء، عدت إلى الدير أكثر حزناً، وجلست أمام التلفاز، وجدت كسرة من الخبز الأسود مرمية، فقضمتها وأنا أشعر أنها أشهى من وجبة كاملة، كنت أتضور من الجوع وأرتعد من الأفكار يتناهى إلي جلبة الطبيعة فلا أدري أهو صخب المطر أم هدير الساقية، انزويت وحيداً متدثراً

بالمعطف، وفجأة تبدى شبح أسود ملفع بجلباب طويل من الرعب، أدار وجهه إلي بسرعة البرق فصنعت أذيال ثوبه دائرة من الريح وتجمد كصنم صائحاً بصوت هز أركان الدير:

- أنا هو رب العائلة.. أتيت لأربيكم ... لا لتربوني.

واعترتني دوامات موخزة من الذكريات، كان والدي يزعق وفي يده قضيب من الأشواك، وكانت أمي تجري بين غرف البيت، فأحسست أن لهباً ارتطم برأسي فأخذت أجري في الدير، كما كانت تفر أمي، لم أكن أدري لِمَ أفعل هذا وممن أنا مطارد، ركضت إلى زريبة الخرفان وفر من أمامي مذعوراً الدجاج والأرانب وأسرعت أسرعت إلى الساقية وجعلت دون أن أدري ما أفعل أسابق الأمواج الهادرة، وبدا لي أن هذا الجدول ليس إلا ساقية من دم، وعدت وحمى من اللهب والضياع ترتطم في رأسي وطرقت أبواب الكنيسة وأنا أزعق وأصيح وسقطت على الأرض وتدحرجت على سلم الكنيسة ثم عدت أقفز مسعوراً وأجري بين غرف الدير، وكان أحدهم قد حاول إيقافي فظننته أبي وصحت لا.. لا والتفوا حولي وأخذوني إلى السرير، وكان راهب يقول ثمة شيطان في داخله، وقال آخر الأفضل أن نجلب له طبيباً، ولم يقم الطبيب بشيء أكثر من اعطائي حبوب المهدىء.

١٩ حزيران

ضحكَتْ الشمس لمدة وجيزة في الصباح، ووجدت الراهب العجوز أيضاً يضحك، وبادرني في الفناء وكنت أقصد غرفة الهاتف:

- ألا تزال نائماً حتى الآن؟

ولم أعرف ماذا أجيب، وتبسمتُ له وقلت «صباح الخير» كان في يدي

الكتاب المقدس ووجهي محتجباً بالأفكار، ويبدو أنه أشفق علي فأراد لفت نظري إلى أن الحياة ليست ديناً وسطوراً وكلمات فقط لذلك قال:

- هل ستظل على هذا النحو؟ ألا تحب أن تساعدنا في شيء؟

وأشار إلى الفسحة الترابية الواقعة بين الكنيسة والمبنى، ورغم أنني لم أجد أن شيئاً يمكن فعله هناك قلت:

- لا بأس.. بكل سرور.

بدا لي وجهه صافياً باسماً كالشمس التي أطلت فجأة، لحية بيضاء تبدت كأنها هي أيضاً تضحك وقال بإصرار:

- هل تملك ملابس غير هذه للعمل.

- لا تقلق.. أجل.

كانت الشمس المشرقة بعد الأيام الماطرة تثير انفعاله حقاً، فقال:

- انظر.. إنها تضحك كامرأة، ماالذي تقرأه؟

فقلت:

- سِفر الجامعة.

فأجاب:

- هيا إلى العمل ياعزيزي.

ثم توجه إلى حظيرة الخرفان وأطلقها إلى العشب، فعدت إلى حجرتي وخططت رسالة إلى أبي وأخذتها إلى بريد القرية:

عزيزي

ستة أعوام مضت ياأبي، أجري وأتنقل، ما مرت بي لحظة إلا وأحسست أن دمعة قد انحدرت على خدي أمي، ستة أعوام تائه ووحيد أتخيلك مسخاً مسعوراً طويل المخالب أخذ كلما استبد به الهياج يلعق من

دمها، أقول مسخ وأنا أعلم أنك سترضى بهذا اللقب من أجل أن تستمر في إنشاب أظافرك حتى عروقها.

أواه يا أبي كم من الجروح قد خلفتها في صدري منذ أنجبتني، إن نقمتي ليست بسبب العشرين سنة الماضية التي قضيتها تضرب وتزعق وترفس، وإنما لأنه قبل أن يحين أجلك بدقيقة واحدة ستنبح في وجه أمي ثم تموت.

كم من الدموع قد سال على وجهي يا أبي، أليس كفاية؟ إنني أمنحك ستة شهور لتتوقف عن ترويعها وأنا أعلم كم هذا صعب عليك ولكن إن جُنت أو ماتت بين يديك لن ينقذك من أحلامي السعيدة سوى أن تعيدها إلى الحياة.

نعم يا أبي تنتظرني الآن أحلام رائعة وهي كيف سأستمتع باختراع طرائق مروعة لتعذيبك؟ ولست وحدي، إن جميع الذين تظلمهم الآن سينقلبون ذئاباً حين تضعف، وسينساقون وراء نفس الوحشية اللاإرادية التي تمارسها أنت الآن وستموت في برية مهجورة مطارداً من فئران خطاياك.

ستة شهور!! لست أدري يا أبي، الأرجح أنني لن أنسى أبداً، لن أنسى مطلقاً، أنك سددت الطريق في وجه عودتي.

محمد

بعد الظهر غاصت الشمس من جديد تحت طبقات الغيم، فشعرت بالرعب على الفور، وتدثرت بمعطفي وجلست وحيداً أمام التلفاز. ثم قمت وتأملت لوحات الكنيسة، ودخلت المذبح لأول مرة في حياتي ورنوت إلى القبة والصلبان ورسوم القديسين، وما إن فتحت إحدى النوافذ حتى دخل

على الفور هدير الساقية. وأعتم النهار فاجتاحتني رعدة عنيفة، كان الدير يحزن والساقية تعول والسماء تبكي فذهبت إلى حجرتي، وتمددت على السرير.....

كانت الورقة المطوية هي برقية وصلت من أهله منذ يومين ورحت أفضها ثم قرأت:

«أحضر حالاً.. لقد توفي والدك منذ ستة أعوام».

تمت